المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة البحث العلمي

مجلة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مجلة علمية محكمة

أضواء بلاغية على بعض آيات البر في القرآن الكريم

الدكتورة عبيرة عطاء محمد رزق
قسم اللغة العربية - كلية الآداب
جامعة الملك عبدالعزيز

العدد السادس والعشرون
ربيع الآخر ١٤٢٠هـ

أضواء بلاغية على بعض آيات البر في القرآن الكريم

الدكتورة سميرة عدلجي محمد رزق
قسم اللغة العربية - كلية الآداب
جامعة الملك عبدالعزيز

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه والصَّلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبدالله خير أنامه والقائل في حقّه عز وجل: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾.

صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلَّم تسليماً كثيراً وبعد:

فهذا عمل نبتغي به وجه الله تعالى أولاً ثم نرجو منه الفائدة والنَّفع للمتخصِّصين وغيرهم من محبِّي الاطلاع والثَّقف وهو موضوع يتناول بعض آيات البرِّ في القرآن الكريم بالدِّراسة والتحليل المتأني لنلقي بعض الأضواء البلاغيَّة على هذه الآيات الكريمات، موضوع الدِّراسة وذلك لتوجيه العقول والقلوب إلى جمال أمثال هذه الدِّراسات ومتعتها العلميَّة والنَّفسية فضلاً عن أهمِّية هذا الموضوع (البر) وخطره في إصلاح الفرد والمجتمع دينياً ودنيوياً، فليس منَّا من يكون بفضل الله تعالى محسناً بقوله أو عمله إلا ويترقَّب في شوق ونهم شديدين ثمار البذور التي بذرها في حياته.

ولم لا؟! وذلك وعد الحقّ سبحانه في قوله العزيز: ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾، وقد يكون أحدنا عكس ذلك- والعياذ بالله- فيهرول هارباً من ذنبه عائداً إلى ربِّه بالتَّوبة النَّصوح قبل أن يسبقه الأجل وتخترمه المنيَّة وحينئذ لايكون منه برٌّ أو إحسان.

ولعلَّ من أهمِّ أسباب اختيار هذا الموضوع أيضاً:

اقتصار مفهوم بعض النَّاس على أن البِّر هو مجرَّد الإحسان إلى الوالدين، الأمر الذي أشعل الرَّغبة لدينا في تتبُّع المعنى الصَّحيح لهذا اللَّفظ حسب وروده في المعاجم اللُّغوية التي كان الاستعمال القرآني للألفاظ هو النبراس الذي تستضيء به في المقام الأول.

أضف إلى ذلك أنَّ الدِّراسات البيانيَّة في القرآن تحتاج إلى بحوث

وإضافات كثيرة متعدّدة الجوانب ولعلّ هذه الدّراسة تشغل جانباً متواضعاً من ذلك الاحتياج.

لاحظنا أن معظم الدّراسات البلاغيّة للقرآن متجهة في الغالب إلى دراسة السور بأكملها سورة سورة وهذا جهد جهيد- من غير شك- تُقدّر أصحابه ونجزل لهم الشكر والدّعاء لما قدّموه من خدمة للقرآن الكريم والدارسين جميعاً بلا استثناء.

وقد أفدت شخصياً في هذا العمل وغيره من أمثال هذه الدراسات ولكنّنا نتناول في هذا البحث موضوعاً تقتطف زهراته من بعض سور القرآن الكريم لضيق المجال هنا عن استيعابها جميعاً، ونطمع في رضا الله عزّ وجل عنه ثمّ في إفادة المتخصّصين وغيرهم من محبّي العربية واللّسان المبين ليأخذ مكانه من هذه الدّراسات وبالله التوفيق والسداد.

هذا وقد استقرّت خطة البحث كما يلي:

تمهيد:

يشمل معنى البر في اللغة وذلك حسب وروده في المعاجم العربية مثل لسان العرب وتاج العروس ومقاييس اللّغة... وبيّنا أنه يعني كل معنى للخير من صدق أو إحسان أو طاعة أو عبادة أو عطف أو قبول أو صلة أو إجابة أو عطاء أو نُمُو[1].

ثم أتبعنا ذلك بتعريفه في الاصطلاح وعيّنا لاستعمال القرآني لهذه اللّفظة وبيّنا خلال تلك السطور أن المعاني اللّغوية السّابقة كان القرآن هو معينها الأوّل ورافدها الأصيل الصّافي لذا جاءت مطابقة تماماً لما ورد في القرآن الكريم من معان لهذه اللفظة الشريفة وساقنا الحديث إلى بيان أنواع البر حسب ورودها في القرآن الكريم فذكرنا أنّه:

(أ) برٌّ من جهة الله تعالى، وهو تفضّل ومنّة وكرم ورحمة منه- عز وجل-

التمهيد: البرُّ في اللُّغة:

ذكر ابن فارس مايلي:

(الباء والراء في المضاعف أربعة أصول: الصِّدق، وحكاية صَوت وخلاف البَحْر، ونَبْت)[1].

والأصل الأول هو المراد هنا وإن كانت بعض المعاجم أشارت إلى معان أخرى غير الصِّدق كالطَّاعة والعبادة، الخير والصِّلة، والعَطف، القبول والإجابة[2]. وجاء في التَّاج بمعنى الصَّلاح والاتِّساع في الإحسان إلى النَّاس ومنه أخذ البَرُّ مقابل البَحْر لسعته[3].

فمن معنى الصِّدق قولهم:

(صَدَقَ فلان وبَرَّ، وبرَّت يَمينُه أي صَدَقَتْ، وأبرَرْتها: أمضَيتها على الصِّدق)[4].

أما لبيد فقد جعل البرَّ بمعنى التُّقى إذ يقول:

(وما البرُّ إلا مُضمرات من التُّقى)[5].

وبَرَّ رَحِمهُ إذا وَصَلَهُ وبَرَّ في يمينه أي صَدق ولم يَحْنث وأبرَّ فلانٌ قسمَ فلان أي أجابهُ إلى ما أقسَمَ عليه[6].

واسم الفاعل بَار، وجَمْعُها بَرَرَة وأبرار، والمصدر البِر، والأنثى بَرَّة قال النابغة[7]:

إنَّا اقتسمنا خُطَّتينا بيننا فحَمَلتْ بَرَّةُ واحتملت فَجَارِ

وجاء في أسماء اللَّه الحسنى «البَرُّ» دون الباء قال تعالى[8]:

﴿... إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾

أما قولهم أبرَّ الرجل فتعني (ولَدَ أولاداً أبراراً)[9].

أما ابن السكيت فذكر أن: [(أبرَّ) فلان إذا كان مسافراً، و(ركبَ البرَّ)،

ويأتي البرّ في القرآن أيضاً بمعنى التوسّع في الإحسان مثل برّ الوالدين وغيره قال تعالى[١٨]: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، وقال تعالى[١٩]: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

وبمعنى القبول، جاء في الحديث الشّريف[٢٠]:

«عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «العمرة إلى العمرة كفّارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنّة»».

وجمع اسم الفاعل (بارّ) (البرار) قال تعالى[٢١]: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.

أما جمع اسم الفاعل (برّ)، وهو مفرد خاص بالذّات الإلهية - عزّ وجل - جمعه في اللّغة (بَرَرَة) كما في قوله تعالى[٢٢]: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾، وهذا الجمع الذي ورد في القرآن خاص بالملائكة وهو أبلغ من الجمع (البرار)[٢٣].

أنواع البرّ مع الأمثلة:

ونحن نتفيّأ ظلال المعاني السّابقة نستطيع أن ندرك أن للبرّ نوعين أساسيين هما:

(أ) برٌّ كرم ومنّة وتفضّل ورحمة وهذا لا يكون إلاّ من جهة الله - عزّ وجل - كما جاء في قوله تعالى[٢٤]: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

(ب) برٌّ من جهة الخلق ويشمل:

١ - برٌّ للملائكة كما في قوله تعالى[٢٥]: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

٢ - برٌّ للنّاس ويتضمّن:

(أ) برّهم في الأفعال كأن يُحسن الرجل إلى والديه أو يصل

﴿وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

ب ـ دراسة الآية وتحليلها بلاغياً:

١ ـ المعنى العام:

قيل في أسباب نزول هذه الآية: (أن عمرو بن الجموح سأل النَّبي ﷺ ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها؟ ، فنزلت)[٣٠].

(وقيل أُنزلت الآية في رجل أتى النَّبي ﷺ فقال: إن لي ديناراً، فقال: أنفقه على نفسك، فقال: إن لي دينارين، فقال: أنفقهما على أهلك، فقال: إن لي ثلاثة، فقال: أنفقها على خادمك، فقال: إن لي أربعة، فقال: أنفقها على والديك، فقال إن لي خمسة، فقال: أنفقها على قرابتك، فقال: إن لي ستة، فقال: أنفقها في سبيل الله وهو أحسنها)[٣١].

وقيل:

سأل المؤمنون رسول الله ﷺ أين يضعون أموالهم فنزلت الآية[٣٢].

ومهما تكن أسباب النزول فإن العبرة- كما هو معلوم- بعموم اللفظ لا بخصوص السَّبب.

ومعنى الآية العام يدل أن سؤالاً وُجِّه إلى المصطفى ﷺ بشأن النَّفقة ماذا تكون ولمن تُعطى؟ فجاء الجواب القرآني الشَّريف، إن ما أنفق من أموال أو تصدَّق به فإنَّما يكون للأبوين والأقارب كالأبناء والإخوة، ثم اليتامى والمساكين وابن السبيل، لأن ما يُفعل من خير يعلمه الله- عز وجل- وهو مجاز عليه خير الجزاء يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم[٣٣].

وقال مقاتل بن حيان: «إنَّ هذه الآية في نفقة التَّطوُّع»[٣٤].

المفرد[10].

وتقديره مصرف (ماذا ينفقون)؟ إذ حذف هنا المضاف.

كما اشتملت على إيجاز حذف في الجملة في قوله: (فَلِلْوَالِدَيْنِ... إلخ) والتقدير فيكون إنفاقه للوالدين... ونرى هنا ما رآه بعض المفسّرين أن الآية الكريمة تشتمل على السؤال عن المطلوب إنفاقه في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾.

أما الإجابة فكانت محتوية على أمرين أولهما: ذكر الشيء المطلوب إنفاقه، وقد بدأ هذا الشيء عاماً شاملاً لكل وجوه الخير في قوله تعالى: ﴿..قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ..﴾.

ثانيهما: مصرف هذا الإنفاق ومواضعه[11]. في قوله تعالى: ﴿..فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ..﴾.

يقول الألوسي في ذلك:

«ويحتمل أن يكون في الكلام ذكر المصرف أيضاً كما تدل عليه الرواية الأولى في سبب النزول، إلا أنه لم يذكر في الآية للإيجاز في النظم تعويلاً على الجواب، فتكون الآية جواباً لأمرين مسؤول عنهما والاقتصار في بيان المنفق على الإجمال من غير تعرض للتفصيل كما في بيان المصرف للإشارة إلى كون الثاني أهم...»[12].

وعلى هذا الاعتبار تكون الآية الكريمة في هذا التّفصيل عن مواضع الإنفاق ووجوهه مشتملة على أسلوب بلاغي لطيف وهو أسلوب الحكيم[13].

و(ماذا) من الناحية النّحوية هنا لها إعرابان:

إما أن تعتبر لفظاً واحداً "مَاذَا" لتكون اسم استفهام مبني على السكون في

وقوله عزّ من قائل[٥٠]: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا أنفقوا ممّا رزقناكم من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خلّةٌ ولا شفاعةٌ والكافرون هم الظالمون﴾.

والاسم من أنفق هو النَّفقة وهي كل ما يُنفَق ومن نفس المادة يُشتق النِّفاق (وهو الدخول في الشَّرع من باب والخروج عنه من باب)[٥١].

أمّا مادّة "صَرَف" فهي تختلف عن هذه المادّة تماماً من حيثُ المعنى فقد ذكر ابن فارس: أن (الصّاد والرّاء والفاء معظم بابه يدلُّ على رَجْع الشّيء من ذلك صَرَفْتُ القومَ صَرْفاً وانْصرَفُوا، إذا رجعتهم فرجعوا)[٥٢].

وقال الخليل: «الصَّرفُ فضل الدّرهم على الدّرهم في القيمة، ومعنى الصَّرف عندنا أنه شيء صُرف إلى شيء كأن الدينار صُرف إلى الدّراهم، أي رجع إليها، إذا أُخذت بَدَلهُ. قال الخليل ومنه اشتُق اسم الصَّيرفي لتصريفه أحدهما إلى الأخرى»[٥٣].

ونلاحظ أن هذا المعنى قد أخذ من استعمال القرآن الكريم أصلاً للمادة نفسها يقول الراغب: (الصَّرف رد الشّيء من حالة أو إبداله بغيره يُقال صَرَفْتُهُ فانْصَرَفَ)[٥٤].

ومنها قوله تعالى[٥٥]: ﴿ألا يومَ يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾.

وبالنّظر إلى هذا المعنى اللّغوي الصّحيح لاستعمال مادّة صَرَف نُدرك ذلك الخطأ الشّائع على الألسنة في قولهم صَرَفْتُ كل ما عندي من مال وهو يقصد إنفاقه.

ومن هنا نُدرك دِقّة القرآن الكريم في مجيء الجملة (يُنفِقُونَ) في موضعها من السِّياق إذ إن السؤال كان عن رغبتهم في إخراج المال ووضعه في مواضعه الصّحيحة للإنفاق حتى لا يبقى لديهم شيء منه وليس المقصود تبديل عملة

بـ(خَيْر) هنا هـو المال[٦٦] والدَّليل من القرآن قوله تعالى[٦٧]: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وقوله- عز وجل-[٦٨]: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾. وعلى هذا يدلُّ لفظ "خَيْر" في الآية الكريمة على طيب المُنْفَق وكونه حـلالاً[٦٩] ولكنَّا نُرجح العمـوميَّـة في لفظ "خير" إذ إن فعل الخير بوجوهه المختلفة مطلوب في كلِّ الأحوال ومع كل النَّاس حتَّى وإن صـدرت منهم إساءة ما تجاه هذا الفاعل فقد روي «عن عبدالله قال: كأنِّي أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدَّم عن وجهه ويقول: ربِّ اغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمون»[٧٠].

ذلك هو شـأن خير البريَّة كلهّم- صلَّى الله عليه وسلَّم- فكيف بنا نحن- المسلمين- عـامـة وكـيـف بنا ونحن في حـاجـة إلى فـعل الصَّـالحـات بقـدر الإمكان؟!.

وعلى الرَّغم من ذلك فالسياق الكريم قد حدَّد أيضاً في قوله تعالى[٧١]: ﴿.. فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ..﴾.

المصرف ومواضع الإنفاق المطلوبة في جملة جواب الشَّرط المقترنة بالفاء في قوله: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ...﴾.

وفي هذا الترتيب بين المذكورين في الآية الكريمة نكتة بلاغيـة- من غير شك- إذ إن السياق الكريم برتَّبهم ترتيباً موافقاً لأهمِّيَة المتقدَّم[٧٢] ومكانته لدى المنفق فجاء قوله (فللوالدين) أولاً لأنَّهما أقرب النَّاس إليه وأكثرهما تفضُّلاً بعد خالقه عليه فقد جعل الله تعالى مكانتهما من حيث رعاية حقِّهما بعد حقِّه- عزَّ وجل- في قوله تعالى[٧٣]: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وقوله[٧٤]: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

نفسه أولى من إنفاقه على غيره مع بعده عن التبذير ومصارف الحرام[٧٤] ولا يفوتنا ما في الإنفاق على الأقارب مع بر وصلة رحم[٧٥].

وقد ذكر القرآن الكريم سوء عاقبة قاطع الرَّحم في قوله- عز وجل-[٧٦]: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾.

ويأتي بعد ذلك دور اليتامى، واليتامى جمع يتيم.. وهو اسم مأخوذ من الفعل الثلاثي يَتَم واليُتْمُ مصدره وهو (انقطاع الصَّبي عن أبيه قبل بلوغه، وفي سائر الحيوانات من قِبل أُمِّه)[٧٧].

قال تعالى[٧٨]: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾.

واليتيم لا يسمى كذلك إلا قبل أن يبلغ الرُّشد لعدم قدرته على التصرُّف في أموره ويُعتبر كل منفرد يتيماً أيضاً فيقال مثلاً: (دُرَّة يتيمة تنبيهاً على أنَّه انقطع مادتها التي خرجت منها)[٧٩]، وقيل: بيت يتيم، تشبيهاً بهذه الدُّرَّة.

فاليتيم يُقدَّم في الآية على المسكين لضعفه وقلة حيلته لفقد أبيه، وإن كان غنياً فكيف به إذا كان من الفُقراء؟!.

وكم من يتامى أغنياء ذُلُّوا وقُهروا لعدم تمكُّنهم من حُسن التَّصرُّف في أموالهم لصغر سنِّهم وعدم قُدرتهم على دفع ظلم أوصيائهم وأمثال هؤلاء الأيتام حسب ظنِّي- أشدُّ حاجة إلى الأخذ بأيديهم ونصرتهم لأن النَّظرة إليهم تختلف عن النَّظرة إلى فقراء اليتامى فالنَّظرة في الحقيقة مركَّزة على ما ورثوه من أموال هي في الحقيقة ليست رهن تصرُّفهم وإنَّما تحت رحمة أوصيائهم الذين قد يأكلون معظمها إن لم يكن كلها، وقد نبه القرآن الكريم إلى

ولعلّ السّبب في ذلك هو أنّ السؤال كان يتضمن شيئاً خاصاً وهو الرّغبة في معرفة نوع الإنفاق، لذلك كانت الإجابة ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم ﴾ فذكر هنا نفس المسند وهو الفعل "أنفقتم" ولم يحذف وذلك للاحتياط لضعف التعويل على القرينة الموجودة في الجملة[٨٧]، بعد ذلك إذ لو حذف لما فهم المعنى من قوله: (من خير) وليعد العهد بالمسند السابق في الآية الكريمة.

أما في جملة الشّرط الثانية في الآية الكريمة وهو قوله تعالى[٨٨]: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ فقد جاء فعل الشّرط "تفعلوا" بدلاً من "تُنْفِقُوا" لأنّ المراد هنا هو فعل الخير بصفة عامّة وليس الإنفاق فقط إذ إن الإنفاق يدخل في الفعل والمعنى (وما تفعلوا من شيء من وجوه البرّ والطّاعات)[٨٩].

وقد ذكر بعضهم أن المعنى عائد إلى اللّفظ الأوّل أي وما تفعلوا من إنفاق خير[٩٠].

ولكنّا نرجّح هنا ما رجّحه أبو حيان من أنّ المقصود بالفعل في (ما تفعلوا من خير) هو فعل الخير والبرّ بصفة عامّة وأن الجملة تدلّ على ثواب ذلك الخير وتهيجته المنتظرة وهو علم الله- عز وجل- به وكفى بعلمه الواسع الحكيم محيطاً فهو عزّ وجلّ المجازي- وحده- على كلّ فعل يصدر من الإنسان.

والملاحظ هنا أن الجملة المقدّمة بواو العطف في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾.

جاءت "مَا" فيها أيضاً شرطيّة جازمة و "تَفْعَلُوا" فعل الشّرط مجزوم بحذف النون من آخره والواو فاعل عائد على المخاطبين المسلمين و«من» تبعيضية بمعنى أيّ خير أو برّ كان قلّ أو كثُر، والفاء واقعة في جملة جواب

موقعها من سياق الآية الكريمة: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ أدركنا الدَّور البعيد المدى للفظ "عَليم" وذلك ليكون أدعى إلى المبالغة في فعل الخير وكذا الإشارة ضمنية إلى المبالغة في تجنُّب فعل الشرِّ والعمل بـــه[١٠٠].

ومن هنا ناسبت الصِّفة «عليم» أن تكون فاصلة دقيقة للآية الكريمة لاسيَّما وأنَّها اختتمت بحرف الميم الذي يقترب في المَخرج من حرف الباء، الذي اختتمت به فاصلة الآية السابقة.

قـال تعالـى[١٠١]:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾.

نعم ذلك هو القرآن الكريم الذي تأتي فيه الفاصلة (مستقرَّة في قرارها مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة يتعلَّق معناها بمعنى الآية كلها، تعلقاً تاماً بحيث لو طُرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم، فهي تؤدِّي في مكانها جزءاً من معنى الآية، ينقص، ويختلُّ بنقصانها)[١٠٢].

وقد ذكر السيوطي ما روي عن زيد بن ثابت أنه قال: «أملى عليَّ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ وهنا قال معاذ بن جبل: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ فضحك رسول الله ﷺ فقال له معاذ لم ضحكت يارسول الله؟ قال بها خُتمت»[١٠٣].

توخيهما معاني النّحو، ووجوهه التي علمت أنّها أصول النّظم»[108].

والشيخ عبدالقاهر يريد أن يثبت بقوله ذلك أن القرآن الكريم قد فاق بنظمه كل نظم لجودة اختيار ألفاظه ووقوعها مواقعها الدقيقة البليغة من السياق القرآني الجليل بحيث لو بُدل لفظ بغيره لاختلف المعنى وضاع إعجاز النّظم.

وهكذا نجد مصداق ذلك في الآية الكريمة- موضع الدّراسة-.

لقد تبيّنّا التركيب فيها قوياً تأخذ فيه بعض الألفاظ برقاب بعض، وكذا الجُمل، حتى لندرك من خلال ذلك النّسق الكريم السّلاسة والسهولة في النُطق، مع جودة التركيب وفصاحة اللّفظ فضلاً عن دقة اختياره وتمكّنه في موضعه ولعلّنا نشعر أيضاً بقوّة هذا الترابط وشدّته عندما ندرس موضع الآية الكريمة[109] من السياق قبلها وبعدها، أما صلتها بما قبلها، فتبدو من خلال عودتنا إلى الآيات السابقات[110] للآية- موضع الدراسة-.

والتي تبين اتصالها وتلاحمها معها تلاحماً واضحاً من خلال المغزى وذلك لأن الآيات السابقات (دلّت على أن حبّ النّاس لزينة الحياة الدنيا هو الذي أغراهم بالشقاق والخلاف وأن أهل الحق والدين هم الّذين يتحمّلون البأساء والضّرّاء في سبيل الله وابتغاء مرضاته، ومنها ما يصيبهم في أنفسهم وأموالهم، وذلك مما يرغّب الإنسان في الإنفاق في سبيل الله، وبذل المال كبذل النّفس كلاهما من دلائل الإيمان، فكأنّ السامع لما تقدم تتوجّه نفسه إلى البذل فيسأل عن طريقه فجاء بعده السؤال مقروناً بالجواب)[111].

أما اتصالها وترابطها بالآية بعدها[112]، فيبدو من خلال حديث الآية عن القتال وبذل النفس وكراهية ذلك في نفس المسلمين وثقله عليهم.. وبيان فضله وأهميته كما ذكر من قبل[113]، الجهاد بالمال والنّفقه فكأن السياق الكريم هنا يتدرج من أقلّ درجات البذل وهو الجهاد بالمال إلى ما هو أرقى منه وأفضل

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

فالملاحظ أن المصارف المذكورة في صدقة التطوُّع بدأت بالأولى وهم الوالدان وفي ذلك تجاوز عن الأبناء لأنهم بمنزلة الشَّخص نفسه ثم الأقربين، ثم اليتامى.. إلخ، هذا الترتيب الذي سبقت الإشارة إلى أسبابه[١٢٠].

وذلك لأن صدقة التطوع إنما هي شيء غير مفروض ولعل الحكمة- والله أعلم- في أن يبدأ الترتيب فيها بأقرب الناس إلى الشخص المنفق- لعلَّ الحكمة في ذلك- هي الترغيب في العطاء الزائد لاسيَّما وأن مال الشخص عزيز عليه فإذا طلب منه صرف جزء من هذا المال على من هم أولى الناس بخيره ورزقه وأعرفهم بحاله سمحت نفسه بالإنفاق فبادر إليه.

أما في آية الزكاة المفروضة فقد بدأت مصارف الإنفاق بالفقراء في قوله تعالى[١٢١]: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ...﴾ إلخ.

وكأنَّ السياق هنا يشير إلى الحكمة في أن تكون الزكاة المفروضة أولاً للفقراء- وهذا لفظ عام في جميع فقراء المسلمين- وقد يشمل الوالدين أيضاً.

نقول لعل الحكمة في أن يكون الفقراء مقدَّمين هنا هي كون الشيء المفروض ثقيلاً على النَّفس غير حبيب إليها وقد لا يفعله الشخص إلا بشق الأنفس فكيف إذا كان هذا المفروض مالاً؟!

وليمحص الله تبارك وتعالى الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه من غيرهم! فقد أبعد السياق الكريم الأقارب هنا ولم ينص عليهم صراحة حتى يخلص الأمر السَّماوي وحتى لا يختلط بهوى النَّفس ورغبتها الخاصَّة وحتى يكون دفع الزكاة لذاتها من أجل فرضيَّتها ووجوبها بصرف النَّظر عن مصارفها ولا

ثم يأتي السياق الكريم بفي مرّة أخرى في الصّنفين الأخيرين لبيان فضل ترجيح هذين الصنفين على الرُّقاب والغارمين[١٢٨] وقيل إن اللام جاءت مع الأصناف الأربعة الأولى لأن المال يدفع لهم بأنفسهم ولهم حرية التّصرُّف فيه أمّا الأربعة الآخرون فيُصرَف في مصالح تتعلّق بهم[١٢٩].

فالحكمة بدت هنا في هذا التّرتيب- والله أعلم- أن الزكاة تُصرَف حسب حاجة هذه الفئات ووجودها في المجتمع فإن جَمَع إمام المسلمين هذه الزكاة وكانت لديه كل الفئات قسّمها بينهم إمّا بالتّساوي أو حسب حاجة كل فئة منهم أمّا إذا لم يجد جميع الفئات فله أن يدفعها للفئة التي تفرضها أحداث السّاعة كتجهيز الغُزاة والمجاهدين مثلاً وهكذا إذا كانت تقتضي المصلحة إيثار غير هذه الفئة[١٣٠].

أما في آية صدقة التطوُّع فترتيب الأصناف فيها يبدأ كما ذكرنا بالأولى فالأحوج- والله أعلم-.

كما نلمح البلاغة القرآنيّة في جملة: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾، في آية الزكاة بينما نجد في آية صدقة التطوّع قوله: ﴿ وما تفعلوا من خير ﴾ نقول بدت هذه البلاغة في شدّة الخطاب في القول الكريم: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ مع الزكاة، بينما نجد الهوادة واللّين والتّرغيب في فعل الخير في القول الكريم: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ في عجز آية التّطوع- موضوع الدراسة- كذا نلمح مناسبة فاصلة الآية في آية الزّكاة في قوله: ﴿ واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾.

إذ تبدو هذه المناسبة في علمه- عز وجل- بالّذين يوفون بها ويؤدُّونها في وقتها ولأصحابها وبحكمته الشّاملة التي تضع الأمور في مواضعها فيقسّمها كيف يشاء وعلى من يستحقّها من المسلمين.

أما آية صدقة التطوُّع فقد ناسبت الفاصلة فيها ما جاء في صدر الآية في

٢ ــ مثال آخر:

قوله تعالى[١٣٤]:

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾.

دراسة الآية وتحليلها بلاغياً.

١ ــ المعنى العام:

بيّنت الآية الكريمة أن أول ما أمر الله تعالى به العبد هو توحيده وإفراده بالعبادة والخضوع له وإخلاص الأعمال لوجهه الكريم بل إن قوله تعالى[١٣٥]: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾، تبيّن أن الهدف الأول من خلق الجن والإنس هو العبادة، ولا شيء غيرها.

وقرنت الآية الكريمة بين هذه العبادة وبين برّ الوالدين فأمرت بالإحسان إليهما إذ بيّنت نصاً:

أن أول من يستحقُّ هذا الإحسان هما الوالدان. . وقد ذُكر هذا وأكّد عليه في أكثر من موضع من القرآن الكريم لأهمّيته فجاء، مثلاً قوله تعالى[١٣٦]: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآية.

وقوله تعالى[١٣٧]: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآية.

وقوله[١٣٨]: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآية.

والإحسان إلى ابن السبيل يكون بمعونته وضيافته أو حمله إن احتاج إلى ذلك[١٤٦]، وقد يكون ابن السبيل عزيزاً في وطنه ميسوراً ثم تمرُّ به جائحة انقطاعه في سفره فلا بدَّ من مساعدته وفك عسرته[١٤٧].

وتضمَّنت الآية أيضاً الأمر بالإحسان إلى الأرقَّاء لأن الرقيق كالأسير عند سيِّده[١٤٨]، فلا بدَّ من حُسن معاملته في الأكل والملبس والمشرب فهذه أهمّ مظاهر الإحسان إليه.

ثم تؤكِّد الآية الكريمة هذا الأمر الإلهي العظيم. ببيان كراهيته- عز وجل- لمن كان متكبِّراً متبطِّراً لا يشكر له- عز وجل- نعمته ببذلها في وجوه الخير[١٤٩].

٣.٢ ـ دراسة الألفاظ والتراكيب:

أما عند دراسة الآية دراسة بلاغيَّة فعلينا أن نعود مرة أخرى إلى نصِّ الآية الكريمة لفظة لفظة وجملة جملة لنقف على بعض أسرار هذا النَّظم القرآني البديع:

قال تعالى[١٥٠]: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

الملاحظ أن الآية الكريمة بدأت بجملة ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وهو أمر بالعبادة في قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، (والعبودية تعني الخضوع والتذلُّل، والافتقار لمن له الحكم والاختيار)[١٥١].

جاء في مقاييس اللغة: «العين والباء والدال أصلان صحيحان، كأنهما متضادَّان والأول من ذينك الأصلين يدلُّ على لين وذل والآخر على شدة وغلظ»[١٥٢].

والقرس في الحيوانية، ومشاركة فرس وفرس في الكُمْتَة والدَّهْمَة[١٦١].

والشرك في الدِّين ضربان:

أحدهما الشِّرك العظيم وهو إثبات شريك لله تعالى[١٦٢]، وهو كُفر قال تعالى[١٦٣]: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية.

والثاني الشِّرك الصغير وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور وهو الرياء والنفاق[١٦٤]، المشار إليه بقوله[١٦٥]: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ الآية.

ونلاحظ في هذا التركيب: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، تقديم الجار والمجرور "به" على المفعول به "شَيْئاً" وذلك لاختصاص هذا المتعلق "به" المتقدِّم على المفعول به[١٦٦]؛ إذ إن حرف الجر اتصل بالضمير العائد على لفظ الجلالة "الله" عز وجل والأمر بعدم الإشراك في العبادة هو خاص بالله- عز وجل- دون سواه.

أما "شَيْئاً" فهي مفعول به للفعل "تُشْرِكُوا" والشيء قيل: هو الذي يصحُّ أن يُعْلَم ويُخبَر عنه.

وعند كثير من المتكلِّمين هو اسم مشترك المعنى إذ استعمل في الله وفي غيره ويقع على الموجود والمعدوم، وعند بعضهم الشيء: عبارة عن الموجود وأصله مصدر شاء وإذا وصف به تعالى فمعناه شاء وإذا وُصف به غيره فمعناه المشيء[١٦٧]، مثل قوله تعالى[١٦٨]: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

فاستعمال السِّياق هنا للفظة "شَيْئاً" يدلُّ على رفض هذا الاشتراك بأي شكل من الأشكال سواء كان مخلوقاً أو صنماً شركاً خفيّاً أو غيره[١٦٩]، وقد افتتحت الآية الكريمة بهذا الأمر الإلهي السَّامي وهو عبادة الله وحده وعدم

للوهلة الأولى مؤدّياً للمعنى مثل "فضلاً" فالفضل يعني الزّيادة في شيء[١٧٤].

وقد يكون محموداً أو مذموماً فالمحمود كفضل العلم والحلم، والمذموم كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه[١٧٥].

وبما أن الفضل يحتمل الزيادة في المحمود أو المذموم لذا لم يصح استعمالها في السّياق لعدم دقّتها أما الإحسان فلا يحتمل إلا المحمود من الأعمال هذا من جهة المعنى أمّا من جهة المبنى فيبدو ذلك في سلاسة اللّفظ وسهولة نطقه في السياق الكريم مع قرنائه حتى ليبدو التركيب سلس النُّطق بديع النَّظم وبحيث يمتنعُ وجوده في غير أسلوب القرآن الكريم.

ثم جاء قوله تعالى في الآية الكريمة[١٧٦]: ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾، فعطف بالواو أيضاً ليدل هذا العطف على وجوب الإحسان إلى الأقارب أيضاً، وقدم الوالدان لأهمّيتهما وعظم حقّهما عن غيرهم أما تكرار حرف الجر في قوله: ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ للتأكيد وزيادة المبالغة[١٧٧] إذ كان من الممكن أن يُقال: «وبالوالدين إحساناً وذي القربى...».

وعلى هذا تكون الآية قد اشتملت على إيجاز حذف في المفرد[١٧٨]، وتقدير المحذوف "إحساناً" أيضاً.

(قرئت إحسان بالرفع على أنّها مبتدأ خبره قبله)[١٧٩]، ونلاحظ هنا أيضاً مجيء ذوي القربى في السياق بعد الوالدين مباشرة وذلك لقربهما من الشخص من جهة أحد الوالدين أو كليهما ولعلمهما بحالهِ وعلمه بأحوالهم ولأن الإحسان إليهم نازل بمنزلة الإحسان إلى نفسه فهم جزء لا يتجزّأ منه..

ويلي أولئك "اليَتَامَى" لما لهم من حقّ المساعدة والاهتمام بأمرهم لفقدهم

المعنى من السياق فهذا هو إيجاز الحذف في المفرد وهو مثل قوله تعالى[١٨٧]: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾.

وقوله تعالى[١٨٨]: ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾.

ونرجّح هنا هذا الرأي وهو حذف المضاف لوجود النَّظير من القرآن الكريم كما أشرنا.

ويكون الإحسان إلى الجار بالمال في أثناء حاجته إليه أو بمشاركته أتراحه وأفراحه، عيادته في مرضه- أو تشييعه في جنازته.. إلخ.

وعدم إيذائه بأي شكل من الأشكال كما يمتدُّ حقُّ الجار إلى حدِّ أن رسول الله ﷺ قال عنه[١٨٩]: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنَّه سيورِّثه».

ولا يشرك السياق الكريم في الآية ذكر الصَّاحب وماله من حقِّ البِرِّ والإحسان فالصُّحبة شيء عزيز لا يمكن أن تغفل أهميتها، والقرآن الكريم يهتمُّ أيضاً بهذا الجانب ويقدِّمه على ابن السبيل لأن الصَّاحب أكثر وجوداً واختلاطاً بصاحبه إما في حرفة أو تعلُّم أو سفر وما إلى ذلك، أما ابن السبيل فلا يكون الاختلاط به إلا لظروف عُرِبته عن وطنه ومكانه، لذا تقديم الصَّاحب بالجنب في السياق أكثر أهميَّة من تأخيره عن ابن السبيل.

أما ورود «الصَّاحب بالجنب» متأخراً في السياق عن الجار بالجنب فلأنَّ الجار بالجنب أولى بالإحسان لقربه الدَّائم ومشاهدته لجاره معظم ساعات النَّهار التي قد يتوفر للصاحب أو الرفيق إلا القليل منها. وذلك فترة لقائهما في ساعات السفر أو العمل أو التعلُّم... إلخ

وعلى هذا لا نرجِّح أن يكون المراد بالصاحب بالجنب هي الزَّوجة لأن حقَّها قد ذُكر منفرداً ومتفصلاً في الآيات السابقات لهذه الآية الكريمة[١٩٠]

فإنا نُدرك تلك البلاغة وذلك الحُسن.

فمادة "مَلَكَ" في اللُّغة: تدلُّ (على قوة في الشيء وصحة يقال: أملك عجينة قوّى عجنه وشده، ومَلكْتُ الشيء: قَوَيْتُه)[١٩٢].

ويقال مَلَك الإنسانُ الشيء لأن يده فيه قوية، والمضارع يَمْلِكُه والمصدر مَلْكاً[١٩٣] والمِلْك هو المال، والمملوك هو العبد ويقال: (فلان حسن المَلَكة أي حسن الصنيع إلى مماليكه)[١٩٤].

وجاء في المفردات: (المِلْكة تختص بملك العبيد ويقال فلان حسن المَلَكة أي الصنْع إلى مماليكه، وخُصَّ ملك العبيد باليمين في القرآن)[١٩٥].

وملك الشيء يعني قوة اليد فيه لذا تشعرنا جملة: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ في السياق بهذه البلاغة القرآنية الفذَّة إذ إن الشخص قد يظنُّ أن ملكيَّته للعبد تمكّنه من أن يكون متسلطاً ظالماً لا يهمُّه في ذلك الظُّلم لومة لائم، فجاء التَّعبير: "وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" ليذكر الناس أن هذه الملكية ينبغي أن تقترن بالإحسان، والإحسان إلى المملوك يتمثل في جوانب كثيرة أهمها: ألا يُكلَّف ما لاطاقة له به وألا يؤذى بسلاطة اللِّسان وسوء المعشر وأن يُعطى من الطَّعام ما يُرضيه ومن الكسوة ما يحتاجه[١٩٦] وكذلك الأمر بالنِّسبة للحيوانات؛ يجب إطعامها وعدم تكليفها من الأعمال والأثقال ما تنوء به قدرتها مع ضرورة وضعها في البيئة المناسبة لطبائعها.

أما لفظة "أَيْمَانُكُمْ" هنا فقد جاءت في هذه الجملة- والله أعلم- للتأكيد على المعنى والمبالغة فيه[١٩٧] فقد يكون المراد هنا مأخوذا من اليُمن واليَركة أي إن هذا الإحسان إلى ملك اليمين قد يكون مصدراً لليَركة والخَير واليُمن دون أن يشعر المحسن بذلك ولعلَّ اختتام الآية الكريمة بقوله تعالى[٢٠٠]: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

أما عن ارتباط الآية الكريمة التي نحن بصدد دراستها بما قبلها فيبدو أنه تعالى لما ذكر أن الرجال قوامون على النساء بتفضيل الله إياهم عليهم وبإنفاق أموالهم[٢٠٨] ودل بمفهوم اللقب أنه لا يكون قواماً على غيرهن أوضح أنه مع كونه قواماً على النساء هو أيضاً مأمور بالإحسان إلى الوالدين وإلى من عطفه على الوالدين فجاءت حثًّا على الإحسان واستطراداً لمكارم الأخلاق وأن المؤمن لا يكتفي من التكاليف الإحسانية بما يتعلّق بزوجته فقط بل عليه غيرها من برّ الوالدين وغيرهم وافتتح التوصل إلى ذلك بالأمر بإفراد الله تعالى بالعبادة إذ هي مبدأ الخير الذي تترتب الأعمال الصالحة عليه[٢٠٩].

والملاحظ أن المطلوب بعد عبادة الله هو الإحسان والإحسان- كما نعلم- هو: أسمى مرتبة يمكن أن يصل بها الإنسان إلى رضا الله- عز وجل-.. فقد سُئل رسول الله ﷺ عن الإحسان فقال عليه الصّلاة والسلام: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكُن تراه فإنه يراك»[٢١٠].

وهنا نقف عند جمال الربط بين عبادة الله وبين الإحسان إلى هذه الفئات المختلفة وهم الوالدان أو ذو القربى واليتامى..*

وكأن السياق الكريم يريد أن ينبّه إلى فضل الاهتمام بهم وإلى درجة هذا الاهتمام في وقت واحد، فالاهتمام ينبغي أن يصل إلى درجة الإحسان الذي يعني عبادة الله عبادة الخائف من عقابه والذي يرجو ثوابه ومغفرته ليصل بذلك الثّواب إلى غاية ما يبتغيه من حسن العاقبة بعيداً عن الاختيال والفخر اللّذان يذهبان ثواب أعماله.

نعم ذلك هو بعض ما أمكننا معرفته من ارتباط الآية بما قبلها، أما عن ارتباطها بما بعدها فيبدو أيضاً في حديث السياق الكريم بعد ذلك عن أولئك الذين يبخلون ويأمرون النّاس بالبُخل.. وهم اليهود أو كل من يمنع ما يمكن أن يقدمّه لغيره من مال أو غيره[٢١١]، ثم بيان عاقبة من يُخفق ابتغاء الرِّياء

﴿ وَبِذِي الْقُرْبَى ﴾ في الآية الأولى التي هي في حقّ أمّة محمّد ﷺ لزيادة التّوكيد والمبالغة لأن الاعتناء بشأنها أكثر من الاعتناء بشأن بني إسرائيل أو غيرهم فالأمّة الإسلامية هي خير أمّة أخرجت للنّاس[٢٢٠].

قال تعالى[٢٢١]:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.

أيضاً بمقارنة الآية الأولى، موضع الدّراسة[٢٢٢]، بقوله تعالى:

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾.

نقول بمقارنة الآيتين نلاحظ:

إن آية سورة النّساء تتحدث عن الإنفاق وهو وسيلة من وسائل البرّ بالأفعال، ولكنّها في صدقة التطوّع لذا جاءت خاتمة الآية متحدّثة عن تأكيد علم الله تعالى بهذا العمل الطيب فقال - عز وجل - في عجز الآية[٢٢٣]: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ ترغيباً في هذا العمل وتحفيزاً للزّيادة منه.

أما آية سورة النّساء[٢٢٤] فقد كانت بصدد الحديث عن الإحسان بصفة عامة وهو أيضاً مظهر من مظاهر البرّ في الأفعال وحيث إن الأمر بالإحسان لا يقتصر في الآية على الوالدين فقط بل يمتدُّ إلى الأقارب واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنُب والصّاحب بالجَنْب وابن السبيل وما ملكت

الدراسة والتحليل البلاغي:

١ ــ المعنى العام:

يظهر المعنى العام لهذه الآية الكريمة من خلال تأمُّل الآية السابقة لها وهي قوله تعالى[٣٢١]:

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

فالنفقة مطلوبة ومحمودة ما لم يفسدها كلمة مَنٍّ أو تفاخر من المتصدِّق على الآخذ لها لما في ذلك من ايذاء وإذلال له.. ولا أدلَّ على ذلك من كلمات الآية الكريمة التي نحن بصدد دراستها وهي قوله[٣٢٢]:

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾

والقول المعروف هو الكلمة الطيِّبة أو الدعوة الحسنة للسائل[٣٢٣]، وقيل هو (أي كلام حسن وردٌّ جميل على الفقير السَّائل وقيل عدة حسنة توعدُه بها وقيل دُعاء صالح تدعو له بظهر الغيب)[٣٢٤].

أما المغفرة فهي السَّتر والتَّجاوز عما صدر من السائل من إلحاف في المسألة وغير ذلك مما يمكن أن يعكِّر صفو المسؤول[٣٢٥]، وهذا يعني أن الردَّ الحسن بكلمة طيِّبة أو دُعاء جميل للسَّائل قد يُطيِّب خاطره ويعوضه عن العطاء المادي كما أن التَّجاوز عن تصرُّفاته النَّابعة من حاجته كالإلحاح في السؤال مطلوب أيضاً لما في ذلك من خير كبير يعود على المسؤول الذي يحفظ لسانه من المنِّ وايذاء السائل بتعييره بما أعطاه لأن الله تعالى غني عن هذه العطيَّة لا يحتاج إلى أحد من خلقه ومع ذلك فهو حليم لا يعجِّل بالعقوبة على ذنب اقترفه أحد من خلقه[٣٢٦].

تزلت في ضرورة الردّ الحسن للسائل وعدم تجريحه، إلا أنّ القرآن الكريم كتاب مُشرِّع يهتمّ بوضع القواعد والأصول والعبرة هنا بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب فلفظة "قولٌ" كما أسلفنا تعطي ظلالاً واسعة عن غيرها بحيث يستشفّ ويفهم منها كل سامع ما يمكن أن يستشفه ويفهمه.

وكذلك الأمر بالنّسبة إلى لفظة "مَعْرُوفٌ" وتفضيلها على لفظة جميل مثلاً.

فالمعروف: مصدر وكذلك العُرف (وسمّي بذلك لأن النُّفوس تسكُن إليه)[٢٤٥].

أما لفظة "جميل" فأصلها من الثُّلاثي "جمل" وهي مادّة لها أصلان:

(أحدهما تجمُّع وعظم الخلق والآخر حُسْن)[٢٤٦]، والأصل الثاني هو المراد هنا أي الجمال الذي هو ضدُّ القُبح.

فالقول إذا كان معروفاً- أي تسكن إليه النّفس ويطمئن إليه القلب- اطمأنّ سامعه به ورضيت نفسه عنه.. بينما الجمال قد ترتاح إليه نفس النّاظر وقد لا ترتاح لأي سبب من الأسباب لذا كان الدقّة وحُسن الاختيار مجيء لفظة "مَعْرُوفٌ" في موضعها من الآية بدلاً من لفظة "جَميل" - والله أعلم- هذا فضلاً عما تحمله العبارة من إيجاز بليغ[٢٤٧].

أما قوله: "وَمَغْفِرَةٌ" أي سَتْرٌ، جاء في مقاييس اللُّغة: (الغين والفاء والراء عُظْمُ بابه السّتْر، ثم يشذ عنها ما يذكر فالغفر السّتْر، والغُفران والغَفْر بمعنى يُقال غَفَرَ الله ذنبه غَفْراً ومغفرةً وغُفْرانا)[٢٤٨].

فلفظ "مَغفرة" هنا أجمل لفظاً من غيره قد يحلُّ محله مثل سَتْر- أو مداراة- وذلك لما في هذين اللّفظين من ثقل وعدم سلاسة قد لا يتناسبان مع

أي قول معروف أولى من . . .

وعلى هذا التقدير تكون الآية اشتملت على إيجاز حذف في المقرد إذ حذف هنا المسند لدلالة السياق عليه أو أن يكون قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ خبر المبتدأ المحذوف والتقدير الذي أُمرتُم به قول معروف[٢٤٣].

وعلى هذا التقدير أيضاً تكون الآية مشتملة على إيجاز حذف، إذ حذف الموصول وصلته.

ولكنّا نفضّل الإعراب الأول وهو كون "قَولٌ" مبتدأ وخبره "خيرٌ" إذ إنه لا داعي لتقدير محذوف في القرآن ما دام المعنى يستقيم بالظّاهر، وجاز الابتداء بالنّكرة لأنها تخصّصت بالوصف*.

وجملة: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ... خَيْرٌ﴾ استئنافية لا محلّ لها من الإعراب وكذلك جملة: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ استئنافية لا محلّ لها، أمّا جملة: ﴿يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ ففي محلّ جر نعت لصدقة[٢٤٤].

والملاحظ هنا أيضاً مجيء قوله: "صَدَقَة" بدلاً من لفظ زكاة وذلك لأن الصدقة تُدفع بطيب النفس والرغبة فيها أما الزكاة فتكون واجبة لذا كان من الدقّة والمبالغة في أداء المعنى أن يأتي السياق بقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾.

ولم يأت مثلاً "خير من زكاة يتبعها أذى" ومجال المبالغة هنا في بيان مدى سوء حال من يفعل الصّدقة ثم يُتبعها بالمنّ والأذى وبيان مدى فضل من يقول القول الحسن على وجه العموم، فكيف إذا كان هذا القول الحسن للسائل أو المحروم، وكثيراً ما نسمع القول: "الألفاظ سعادة" ولا أدلّ على ذلك من

وقوله "أذى" يعني أي شيء يكرهه المرء ولا يقرّ عليه[٢٠٩]، والملاحظ هنا أن هذا اللفظ جاء دون ذكر المنّ قبله وذلك لما فيه من معنى عام يتضمن المنّ وغيره ولعلنا في هذا الإطلاق نشعر بذلك التأثير الذي تتركه اللفظة في نفس السامع إذ تتيح له الفرصة في تخيل أي نوع من أنواع الأذى وقد راقنا في هذا الجانب القول:

«ونستطيع أن نفهم أن الأذى المنهي عنه إثر الصدقة هو الذي يصحّ توقّعه في حال إلحاح السائل وإلحافه واضطرار المسؤول إعطائه شيئاً رغبة في التخلّص من إلحاحه وإلحافه في المسألة، وحينما ينفى وجود الأذى في حال الإلحاح من السائل، فمن باب الأولى أن ينفى المنّ على السائل لدخول المنّ في الأذى باعتباره أقل منه، إنّ في نفي الأكبر نفياً ضمنياً للكبير، ولهذا اكتفت الآية الكريمة بذكر الأذى وسكتت عن المنّ»[٢١٠].

ثم جاء بعد ذلك قوله- عز وجل-: ﴿واللهُ غنيٌّ حليمٌ﴾، فلاحظ الصفة المشبّهة "غنيٌّ"[٢١١] مأخوذة من المادة "غَنِيَ" وهي: (الغين والنُّون والحرف المعتل أصلان صحيحان يدلُّ أحدهما على الكفاية والآخر صوت)[٢١٢].

أما الأول فهو الغنى في المال. (والغَنَاء بفتح الغين مع المدّ الكفاية، يُقال: لايُغني فلان غَنَاء فُلان، أي لا يكفي كفايته)[٢١٣].

وذكر الراغب أن الغنى يُقال على ضُروب:

أولها عدم الحاجات وهذا لا يكون إلا لله- عز وجل- كما جاء في الآية التي نحن بصدد دراستها[٢١٤]: ﴿... واللهُ غنيٌّ حليمٌ﴾.

وثانيها: قلة الحاجات مثل قوله تعالى[٢١٥]: ﴿ووَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾.

وثالثها: كَثْرةُ المقتنيات بحسب ضروب النّاس مثل قوله تعالى[٢١٦]:

الحلم وهو عدم المعاجلة بالمؤاخذة، أي كناية عن إمهال الأغنياء وتأجيل عقوبتهم[٢٧٧].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ تذييل على ما قبله[٢٧٨]، إذ إنه متضمّن للوعد والوعيد مقرّر لاعتبار الخيرية بالنّسبة للسائل قطعاً[٢٧٩].

والملاحظ أن في هاتين الصّفتين ترويحاً عن نفوس الفقراء وتعزية لهم وزيادة لرجائهم في الله - عز وجل - المغني، كما أنّه تهديد للأغنياء وإنذار بعدم الاغترار بحلم الله - عز وجل - وإمهاله لعقوبتهم وعدم معاجلته لهم بسبب ضنّهم على المحتاجين بحسب معاملتهم.. وتذكيرهم أنه هو الحليم وأنّهم محتاجون إلى تقليد هذه الرّحمة في تصرّفاتهم وإلا سلبهم ما أوتوه من نعمة وخير بسبب سوء تصرّفهم[٢٨٠].

ولهذه المعاني ناسبت الفاصلة الكريمة "غَنِيٌّ حَلِيمٌ" الآية كلها[٢٨١]، إذ إنّ قوله "غَنِيٌّ" مناسب للحديث عن الصّدقة والمال.

وقوله "حليمٌ" مناسب للحديث عن قول المعروف والمغفرة.. قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

هذا من حيث المعنى، أمّا من جهة الجرس ومخرج الحرف الأخير في الفاصلة "حَلِيمٌ" فقد جاء هذا الحرف الأخير مناسباً لفاصلة الآية قبله.

في السورة الكريمة في قوله تعالى[٢٨٢]: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

حيث تقارب مخرج حرف "النون" في قوله "يَحْزَنُونَ" من مخرج حرف الميم في قوله "حَلِيمٌ" وكذلك بالنّسبة للآية التالية لها مباشرة وهي قوله

الآيات يبدو في أن هذه الآية وردت توكيداً للمعنى الذي سبقها وهو بيان حكمة الإنفاق والبذل [٢٨٧]، وتوكيداً لأن الغرض هو تهذيب النُّفوس المؤمنة إرضاءً للقلوب المكسورة وربط للواهب والآخذ برباط واحد هو رباط الحب في الله- عز وجل- [٢٨٨].

كما يبدو ارتباطها بما بعدها في السياق الكريم، إن الآيتين التاليتين لها مباشرة [٢٨٩]، تؤكّدان فضيلة الإنفاق النَّقي من المنِّ والأذى فإحداهما تطالب بعدم إبطال الصَّدقات بهاتين الرذيلتين وتضرب مثلاً منفِّراً منها [٢٩٠]، والأخرى تحبِّب في الإنفاق للمخلص النَّقي الذي يؤتي أكله كل حين [٢٩١].

وهكذا تبدو الآيات الكريمات في السورة الكريمة- سورة البقرة- في نسق مترابط ونظم بديع كغيرها من السور الشريفة، تدعو فيه الآية رفيقتها ليكمل بها المعنى ويتم التَّركيب في أبلغ نظم وأفصح لفظ وأصدق بيان بحيث يُعلم عجز البشر عن مثله.

٤ ـ تعقيب وموازنة:

وردت الآية الكريمة [٢٩٢]:

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾.

ضمن الآيات التي تبيِّن قيمة الإنفاق والحكمة منه وذلك للتَّرغيب فيه والعمل على زيادته بين المؤمنين لربط المجتمع الإسلامي بعضه ببعض وليشعر الغني بحاجة الفقير إلى ذلك العطاء وليحس الفقير- من جانبه- باهتمام ذلك الغني بشأنه وإحساسه بحاله [٢٩٣] فيطهرُ قلبه من الحقد والحسد ويبدله عن ذلك رضاً وقناعة وصبراً.

ومع أنَّ الآية الكريمة [٢٩٤] وردت ضمن آيات الترغيب في الإنفاق إلا أنَّها بينت ما هو أهم من ذلك الإنفاق وهو الشَّرط الأساسي لقبوله.

لا تُلَبِّي لذا خُتمت بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

أما آية سورة إبراهيم[٢٩٨]، فهي تبيِّن ثمرة ذلك البر في القول وتضرب لذلك المثل المقنع فناسب هذا المعنى أن يكون تذييل الآية قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي يَتَذَكَّرُونَ هذا المثل فيعملون قدر استطاعتهم ويبرُّون الناس في أقوالهم فلا يؤذون النَّاس بألسنتهم بالبُعد عن النَّميمة والغيبة وقول الزُّور والعمل به أو الشَّتائم والسِّباب وما يتبع ذلك من قذف وغيره قد يُؤدي بصاحبه إلى عدم الإيمان.

قال ﷺ[٢٩٩]: «... ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت».

كما قال تعالى[٣٠٠]: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾.

وهكذا بدت لنا الآيتان المتحدثتان عن معنى واحد وهو فضل القول الحسن وثوابه عند الله في مرتبة واحدة من بلاغة التركيب وجمال النَّظم وحسن التأليف مع عذوبة الألفاظ وفصاحتها بحيث لا نشعر إلا بالعجز عن مثل بيانه وكمال حسنه وتمامه مع اختلاف كلّ واحدة منها في طريقة عرض ذلك المعنى وأدائه.

نعم ذلك هو كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وصدق سبحانه في قوله[٣٠١]:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

٢ ــ مثال آخر:

قال تعالى[٣٠٢]: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾.

دراسة الآية وتحليلها بلاغياً:

(وإنما عدي بعَن المتضى معنى الحماية) مثل قوله تعالى[٣٠٨]: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وقوله[٣٠٩]: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾، وفي الآية الأخيرة عُدّي بالباء كما جاء في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

ولعلّ دقّة الجملة "ادْفَعْ" هنا تبدو عند مقارنتها بجملة أخرى يظنّ صواب حلولها محلها كجملة ردّ مثلاً ولكننا بالعودة إلى استعمال جملة "رَدَّ" في اللّغة نُدرك دقّة القرآن الكريم في اختيار جملة "ادْفَعْ" المذكورة في السياق الكريم.

إذ إن جملة "رد" تعني (رجع الشيء تقول رددْتُ الشّيء أردُّه رداً وسمّي المرتدُّ لأنه ردَّ نفسه إلى كُفره)[٣١٠].

وذكر الراغب أن الردَّ يعني: «صَرف الشيء بذاته أو بحالة من أحواله يقال رَددته فارتدّ»[٣١١].

وهكذا نلاحظ بدراسة المعنيين اللُّغويين لجملتي "ادْفَعْ" و «اردُدْ» نلاحظ ذلك الفرق اللُّغوي بينهما.. فالآية الكريمة تدعو إلى تنحية السيئة من قبل المشركين ومقابلتها باللّفظ الحسن وما ذاك إلا لحمايته- صلّى الله عليه وسلّم- من سوء أقوالهم وأفعالهم، لذا كانت جملة "ادْفَعْ" - في موضعها من السياق- أكثر دقّة من غيرها.

فضلاً عن جرسها الشديد الناتج عن توالي الحروف (الهمزة والدال والفاء ثم العين) في قوله "ادْفَعْ" الذي يشعر بشدة المقاومة والمعاناة التي يلقاها الدّافع للسيّئة بالحسنة، ولا أدلّ على ذلك مما جاء بعد هذه الجملة من الموصول

الأعلى- وهو كذلك من غير شك- فيواظب على الصّلح والغفران بالقول والعمل[٣١٧]، أما قوله- عز وجل-: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ فالملاحظ استهلال الجملة التي يخفّف فيها السياق الكريم عن المصطفى- صلّى الله عليه وسلّم- ما يصدر عن الكفّار من سوء القول والفعل.

نقول نلاحظ استهلال الجملة بالضمير "نَحْنُ" بدلاً من لفظ الجلالة مثلاً وهو المقصود هنا- سبحانه- إلاّ أنّ في هذا الضمير "نَحْنُ" قوة في التّعبير والتأثير فضلاً عما يحمله الضمير من تعظيم للمولى- عز وجل- ومناسبته للخطاب الموجّه للرسول الكريم- صلّى الله عليه وسلّم- في أول الآية الكريمة في قوله "ادْفَعْ" وكأنّنا هنا أمام حوار دائر بين المأمور وآمره، بين العبد وربّه. وكأنّنا نشعر بمحذوفات كثيرة تدلّ على الإيجاز البديع بعد قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾، فأول ما يتبادر إلى الذّهن هذا القول بعد الجملة الأولى من الآية.

ولمَ أفعل ذلك وقد صدر منهم ما صدر من فُحش القول وسوء العمل؟! فتأتي الإجابة البليغة في مكانها..

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ وفي تغيُّر الأسلوب من ضمير المخاطب في قوله "ادْفَعْ" إلى ضمير المتكلّم في قوله "نَحْنُ" أسلوب التفات[٣١٨]، وفي تحوُّل الضمير في جملة "يَصِفُونَ" إلى ضمير الغائب التفات آخر.

كما أننا نلاحظ استعمال صيغة أفعل التّفضيل في قوله "أَعْلَمُ" وهي هنا أنسب للسّياق من الصّفة "عَلِيمٌ" إذ إنّها تناسب اللّفظ "أَحْسَنُ" السابق فضلاً عن إفادة "أَعْلَم" المبالغة في العلم.

أما قوله "يَصِفُونَ" فقد جاء بصيغة المضارع هنا ليدلّ على الاستمرارية والتجدُّد في الفعل، وهي أبلغ من صيغة «وصفوا» مثلاً لأن الفعل الماضي

الآيات (٢٣)- (١١٨) من السورة الكريمة وكونها آتية ضمن هذه الآيات المتحدثة عن أخبار بعض الرُّسل وما أصابهم من بلاء وبيان ما انتهى إليه حال المكذِّبين يبيِّن مناسبة هذه الآية لغيرها في هذا السياق إذ إنَّها لا تعدو أن تكون إرشاداً له ﷺ إلى أمثل طريقة في معاملة الكفَّار والمكذِّبين حتَّى ينال الرضا من ربِّه- عز وجل- وحتَّى يكون له حسن ثواب الآخرة ويكون لهم سوء العقاب فيها والَّذي لن يزول عنهم مهما تمنَّوا ذلك وندموا.

٤ ـ تعقيب وموازنة:

تُذكِّرنا الآية الكريمة[٣٢٧]: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾.

بآية أخرى مماثلة لها في المعنى وردت في سورة فُصِّلت والَّتي يقول فيها عز من قائل[٣٢٨]: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

ولعلَّ الآيتين الكريمتين تدخلان ضمن آيات بر الناس في الأقوال لأنَّ كلتا الآيتين واردتان ضمن الآيات التي يسري فيها السياق الكريم عن رسول الله ﷺ وكلتاهما أيضاً يطلب فيهما منه دفع السَّيئة بالحسنة وإن لقي ما يلقاه- منهم- من سوء الأقوال والأفعال.

وكلتاهما أيضا يعقبهما التنبيه على ضرورة الاستعاذة من همزات الشياطين[٣٢٩]، أو نزغهم[٣٣٠]، لما لهذين الأمرين من تأثير سيِّء على خُلُق الإنسان وضيق صدره عن تحمُّل المشاق وتقبُّل المصاعب.

ومع هذا الاشتراك في المعنى بين الآيتين ورغم ذلك التقارب في عرضه إلاَّ أنا نلمس فرقاً في صياغة كلِّ آية من الآيتين الكريمتين يزيد ذلك الفرق بلاغة

﴿ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾.

فالآيتان - كما قلنا - وإن كانت كل منهما تهدف إلى التسرية عن رسول الله ﷺ فيما يلقاه في سبيل الدَّعوة إلا أنَّ آية سورة (المؤمنون) خُتمت بقوله ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ لمناسبتها للسياق قبلها فالآيات السَّابقات لها مباشرة[٣٢٥]، ترفض أقوال المشركين التي وَصَفوا بها اللَّه - عزَّ وجلَّ - تلك الأوصاف التي لا تليق بوحدانيته وجلاله - سبحانه وتعالى - فكان من المناسب أن تكون فاصلة هذه الآية التَّأكيد على علمه - عزَّ وجلَّ - بأقوالهم والَّذي هو جُزء لا يتجزأ من وحدانيته وسيطرته على ملكوت السَّموات والأرض.

أما آية سورة (فُصِّلت)[٣٢٦]، فقد ختمت بقوله: ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾.

وذلك لأن هذه الخاتمة - واللَّه أعلم - أنسب لسياق الآيات قبلها وبعدها.

أما عن مناسبتها للآيات قبلها[٣٢٧]، فيبدو أن الآيات السابقات تتحدَّث عن الكفَّار وقرنائهم من شياطين الإنس والجن وما يدفعونهم إليه من سوء القول والعمل مما خلَّدهم في النَّار نادمين جزاءً وفاقاً لجحودهم وبُعدهم عن الإيمان.

ثم تلاها الحديث عن المؤمنين وما حُلُّوا به من حسن الاستقامة في القول والعمل مما أسبغ عليهم رضا اللَّه وحسن جزائه في الآخرة[٣٢٨]، فكان مناسباً اتباع هذه المعاني مباشرة التَّعقيب الذي جاء في صدر الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ أي انظر أيها الرسول الكريم كيف كانت عاقبة كل من عمل حسنة أو قالها، وكيف كانت عاقبة كل من عمل سيِّئة أو قالها.

وليكمل المعنى جاء التَّأكيد والأمر على ذلك بدفع السَّيئة بما هو أحسن منها حتى تكون النَّتيجة الفوز في الدُّنيا قبل الآخرة فقد يؤدي ذلك الإحسان المتواصل إلى المسيء إلى إحراجه أو إشاعة تلك الفضيلة بحسده لذلك المحسن فيتحوَّل دون قصد إلى ما يُشبه الولي الحميم.

الخاتمة:

بفضل من الله وتوفيق تمّ إنجاز هذا العمل الذي لا ندّعي فيه الكمال- فذاك أمر محال وصفة المولى- عزّ وجلّ- ولكنه على أيّة حال هو مجرد دراسة تحليلية تُلقي بعض الأضواء الكاشفة على الجوانب البلاغية في آيات البرّ في القرآن الكريم ذلك الكتاب العزيز الذي يسمو بمصدره ويعلو على غيره ببلاغته وبيانه.

أما نتائج هذه الدّراسة فكانت لغوية وبلاغية فعن النتائج اللّغوية فقد أسفرت الدّراسة عن معان لُغويّة للفظ "البرّ" قد غابت عن الناس وطوتها المعاجم في صفحاتها بل آيات القرآن الكريم- من قبل- في سطورها المضيئة وهي: إن البر ليس مجرد الإحسان إلى الوالدين بل هو كلّ خير مهما اختلفت صوره وتعدّدت وسائله؛ فهو الصدْق في القول والعمل أو الإحسان إلى الجميع وإن كان عدواً، أو الطّاعة في غير معصية الله والعبادة بكل صورها لله وحده لا شريك له، أو العطف أو القبول أو الصلة بين الأهل والأقارب والصّديق والجار أو الإجابة لكلّ خير أو العطاء بلا حُدود أو التُّقى كما قال لبيد:

" ومَا البِرُّ إلاّ مُضْمَراتٌ مِنَ التُّقى "

وهو معنى جديد ولكنّا نرى شموله لكلّ المعاني السابقة لأن التّقوى هي ثمرة الإيمان الحق فصدق الإيمان يدفع إلى تحرّي الخير والصّلاح في كلّ شيء وفي كلّ عمل يقوم به المؤمن حتى يلقى ربه- عزّ وجلّ- راضياً عنه.

أما النتائج البلاغية فقد بدت من خلال دراسة وتحليل الآيات نفسها.. إذ إنّ الدّراسة اللّغويّة للفظ في الآية المدروسة توضّح لنا دقة السّياق الكريم

الهوامش:

١ ـ معجم مقاييس اللُّغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط عبدالسلام هارون، (ط٢ سنة ١٩٦٩م مصطفى البابي وشركاه القاهرة).

٢ ـ لسان العرب، (ابن منظور) جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر.
(برر) (يتصرَّف)

٣ ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، ط١ المطبعة الخيرية بجمالية مصر. (برّ) (يتصرَّف).

٤ ـ معجم مقاييس اللُّغة. (برّ)

٥ ـ لسان العرب. (برر)

٦ ـ نفسه (برر) (يتصرَّف)

٧ ـ ديوان النَّابغة (من مجموع خمسة دواوين) ط١، القاهرة سنة ١٢٩٣هـ.

٨ ـ سورة الطور (٢٨).

٩ ـ معجم مقاييس اللُّغة (برّ)

١٠ ـ تاج العروس. (برّ)

١١ ـ لسان العرب (برر) (يتصرَّف)

١٢ ـ معجم مقاييس اللُّغة. (برّ)

١٣ ـ سورة يونس (٢٢).

١٤ ـ سورة الطُّور (٢٨).

١٥ ـ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالرَّاغب الأصفهاني، تحقيق وضبط محمد سيِّد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان ط بدون (برّ) يتصرَّف.

١٦ ـ سورة البقرة (١٧٧).

١٧ ـ المفردات في غريب القرآن. (برّ) (يتصرَّف)

١٨ ـ سورة الممتحنة (٨).

١٩ ـ سورة مريم (١٤).

٢٠ ـ صحيح مسلم بشرح النَّووي ٩/١١٨. (فضل الحج والعمرة).

٢١ ـ سورة الانفطار (١٣).

٢٢ ـ سورة عبس (١٦).

٢٣ ـ المفردات في غريب القرآن. (برّ) (يتصرَّف).

٢٤ ـ سورة الطُّور (٢٨).

٢٥ ـ سورة عبس (١٦).

٢٦ ـ سورة البقرة (٢١٥).

٢٧ ـ سورة البقرة (٢١٩).

المخاطب بغير ما يتوقع وهو ضربان)

١ ـ أن تتجاهل كلام المخاطب نتيجة عن سؤال آخر لم يسأله.

٢ ـ وإما أن تكمل كلامه على غير ما كان يقصده ويريده، وفي هذا توجيه للمخاطب إلى ما ينبغي عليه أن يسأل عنه أو يعتمده من كلامه.

فضلاً انظر في ذلك البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع). د. فضل حسن عباس، سلسلة بلاغتنا وأدبنا (٢) ص٢٨٩، ط١ سنة ١٩٨٧م، دار الفرقان للنشر والتوزيع عمان الأردن.

٤١ ـ الجمل في إعراب القرآن وصرفه وبيانه (مع فوائد نحوية هامة) محمود صافي. مراجعة لبنة الصمدي. ٤٢/١. ط مزيده بإشراف الهيئة العلمية بدار الرشيد. دار الرشيد دمشق- بيروت. ومؤسسة الإيمان. بيروت- لبنان (بتصرف).

٤٥ ـ نفسه، نص الصفحة (بتصرف).

٤٦ ـ معجم مقاييس اللغة (نفق).

٤٧ ـ نفسه (بتصرف)

٤٨ ـ المفردات في غريب القرآن. الأصفهاني (نفق) (بتصرف).

٤٩ ـ سورة المنافقون (١٠).

٥٠ ـ سورة البقرة (٢٤٥).

٥١ ـ المفردات في غريب القرآن (نفق).

٥٢ ـ مقاييس اللغة (صرف).

٥٣ ـ نفسه (صرف).

٥٤ ـ المفردات في غريب القرآن (صرف).

٥٥ ـ سورة هود (٨).

٥٦ ـ سورة البقرة (٢١٥).

٥٧ ـ الجمل في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ٤٤٣/١ (بتصرف).

٥٨ ـ نفسه، نفس الصفحة (بتصرف).

٥٩ ـ نفسه، نفس الصفحة.

٦٠ ـ تفسير البحر المحيط، ١٤٢/٢ (بتصرف).

٦١ ـ تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٣٠٩/٢ (بتصرف).

٦٢ ـ نفسه ٣٠٩/٢ (بتصرف) كذا في التفسير الكبير الفخر الرازي، ٢٥/٦ (بتصرف).

٦٣ ـ سورة العاديات (٩).

٦٤ ـ سورة البقرة (١٨٠).

٦٥ ـ تفسير البحر المحيط ١٤٢/٢، كذا في تأملات في سورة البقرة. أ. د. حسن باجودة ١٢٢/٢، ط سنة ١٤١٠هـ، مكتبة مصر (بتصرف).

٦٦ ـ صحيح مسلم (٢٧٣ باب المسافرين). كذا نص الحديث في سنن ابن ماجه (الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ١٢٣٤/٢ دار إحياء الكتب

٩٠ ـ نفسه، نفس الصفحة (بتصرف).
٩١ ـ الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ٤٤٢/٢ (بتصرف).
٩٢ ـ التذييل مبحث بلاغي لطيف يهتمّ به علم المعاني وهو ايراد الجملة بجملة أخرى لا محل لها من الإعراب ولكنها تفيد التقوية والتوكيد وهو نوعان: منه ما يجري مجرى المثل وما لا يجري مجرى المثل وهذا مما يجري مجرى المثل. فصلاً النظر في ذلك كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي اليمني ١١١/٣ أشرفت على مراجعته وطبعه جماعة من العلماء بإشراف الناشر. ط ١٩٨٢م دار الكتب العلمية. بيروت- لبنان (بتصرف).
٩٣ ـ سورة البقرة (٢١٥).
٩٤ ـ المسند إليه في الجملة هو اسم إنّ الذي كان أصله مبتدأ فصلاً النظر في ذلك البلاغة في ثوبها الجديد "علم المعاني" د. بكري شيخ أمين ط١، ١٩٨٢م. دار العلم للملايين بيروت (بتصرف).
٩٥ ـ قد يذكر المسند إليه في الجملة إذا كان من الواجب ذكره ولا مقتضى للعدول عنه أو لأسباب أخرى، فصلاً انظر تفصيل ذلك في المرجع السابق ١٣٢/١ (بتصرف).
٩٦ ـ صيغة مبالغة من الفعل (علم).
٩٧ ـ من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي ص١١٢، ط عام ١٩٥٠م دار نهضة مصر للطبع والنشر (بتصرف).
٩٨ ـ سورة المائدة (٩٧).
٩٩ ـ المفردات في غريب القرآن (علم).
١٠٠ ـ تأمّلات في سورة البقرة ١٢٢٦/٣ (بتصرف).
١٠١ ـ سورة البقرة (٢١٤).
١٠٢ ـ من بلاغة القرآن، ص٧٦.
١٠٣ ـ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي ص١٤/١ عام ١٣١٨هـ، ط الأزهرية المصرية.
١٠٤ ـ سورة البقرة (٢١٥).
١٠٥ ـ سورة البقرة (٢١٦).
١٠٦ ـ المفردات في غريب القرآن (خير)
١٠٧ ـ سبق الإشارة إلى معنى (نظم القوي) في ص ٢٢ من هذا البحث.
١٠٨ ـ دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني بتعليق وشرح محمد عبدالمنعم خفاجي، ص١٢٨ ط سنة ١٩٧٦م مكتبة القاهرة.
١٠٩ ـ سورة البقرة (٢١٥).
١١٠ ـ سورة البقرة (٢١٩) ـ (٢١٤).
١١١ ـ تفسير القرآن الحكيم، (تفسير المنار) ٢٠٧/٢.
١١٢ ـ سورة البقرة (٢١٦).

١٤١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٧٨/٥ (بتصرُّف).
١٤٢. نفسه. نفس الصفحة (بتصرُّف) كذا إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٧٦/٢ (بتصرُّف).
١٤٣. جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٧٩/٥ (بتصرُّف).
١٤٤. تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ٢/ ١٧٥٣ كتاب الشعب (بتصرُّف).
١٤٥. جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٨٢/٥ (بتصرُّف).
١٤٦. نفسه. ٨٣/٥ (بتصرُّف).
١٤٧. تأمُّلات في سورة البقرة ١٢٢٦/٣ (بتصرُّف).
١٤٨. تفسير ابن كثير ١٩٦/١.
١٤٩. نفسه. ١٩٧/١ (بتصرُّف).
١٥٠. سورة النِّساء (٣٦).
١٥١. تفسير القرطبي ١٧٥٠/٢.
١٥٢. مقاييس اللغة (عبد).
١٥٣. نفسه (عبد).
١٥٤. نفسه " عبد " (بتصرُّف).
١٥٥. سورة الإسراء (٢٣).
١٥٦. سورة الرَّعد (١٥).
١٥٧. المفردات في غريب القرآن (سجد، عبد).
١٥٨. سورة البقرة (٢١).
١٥٩. سورة النِّساء (٣٦).
١٦٠. المفردات في غريب القرآن (شرك).
١٦١. نفسه (شرك).
١٦٢. سورة النِّساء (٤٨).
١٦٣. المفردات في غريب القرآن (شرك).
١٦٤. سورة الأعراف (١٩٠).
١٦٥. من أسباب تقديم الجار والمجرور (المفعول به) اختصاص المتقدَّم بالحكم. فنضلاً انظر تفصيل ذلك في:
المثل السَّائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدِّين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم المعروف بابن الأثير الموصلي تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ٢/ ٤٠ ط عام ١٩٩٠م المكتبة العصرية (بتصرُّف).
١٦٦. المفردات في غريب القرآن (شيء).
١٦٧. سورة الرَّعد (١٦).
١٦٨. فتح القدير الجامع بين فنَّي الرِّواية والدِّراية من علم التفسير ٤٦٤/١ (بتصرُّف).

١٩٧. المفردات في غريب القرآن (ملخَّصاً).
١٩٨. التفسير الكبير ٩٧/١٠ (بتصرُّف).
١٩٩. نفسه، نفس الصفحة (بتصرُّف).
٢٠٠. سورة النِّساء (٣٦).
٢٠١. التذييل هو اتباع الجملة بجملة أخرى لا محل لها من الإعراب وهو يفيد التَّقوية والتوكيد لما قبله، وهو نوعان: مايجري مجرى المثل كما جاء في الآية الكريمة والآخر لا يجري مجرى المثل. فضلاً انظر شروح التخليص (مختصر العلامة سعدالدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني) وامواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي) وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ٢٦٥/٣ ط (بيجو) دار السرور بيروت- لبنان.
٢٠٢. أساس البلاغة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري. تحقيق عبدالرحيم محمود. عرف به أمين الخولي. ط عام ١٩٨٢م دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان (خيل).
٢٠٣. التفسير الكبير ٩٧/١٠.
٢٠٤. نفسه، نفس الصفحة (بتصرُّف) أيضاً البحر المحيط ٢٤٥/٣ (بتصرُّف).
٢٠٥. سورة النِّساء الآيات (٣٤) (٣٥). قبلها وكذا الآيات (٣٧) (٣٨) (٣٩) - إلخ السورة.
٢٠٦. من علوم القرآن، د. فؤاد علي رضا. ص١٢١ ط١ سنة ١٩٨٢م دار القرآ بيروت (بتصرُّف).
٢٠٧. سورة النِّساء (٣٦).
٢٠٨. سورة النِّساء (٣٤).
٢٠٩. البحر المحيط ٢٤٤/٣.
٢١٠. صحيح مسلم (كتاب الإيمان) ٢٢/١.
• نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن البقاعي ٣٧٥/٥- ٣٧٧ (بتصرُّف).
٢١١. البحر المحيط ٢٤٦ (تفسير الآية (٣٧) من سورة النِّساء).
• نظم الدُّرر ٣٨٠/٥ (بتصرُّف).
٢١٢. سورة النِّساء (٣٦) "موضع الدراسة".
٢١٣. نفس الآية السابقة.
٢١٤. وسبقت الإشارة إلى مواضع الإيجاز وأنواعه في الآية الكريمة في ثنايا الدِّراسة فقوله: (ولا تشركوا به شيئاً.... وبالوالدين إحساناً وبذي القربى... إلخ).
٢١٥. سورة النِّساء (٨٢).
٢١٦. سورة النِّساء (٣٦).
٢١٧. سورة البقرة (٨٣).
٢١٨. سورة النِّساء (٣٦).
٢١٩. سورة البقرة (٨٣).
٢٢٠. تفسير البحر المحيط ٢٤٤/٣ (بتصرُّف).

(بتصرف).
٢٥٢. الجمل في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ٤٦/٣ (بتصرف).
٢٥٣. تفسير القرطبي ١١١١٧/٢.
* فتح القدير ٢٨٤/١ (بتصرف).
٢٥٤. الجمل في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ٤٧/٣ (بتصرف).
٢٥٥. صحيح مسلم (باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها).
٢٥٦. سورة إبراهيم (٢٤) (٢٥).
٢٥٧. معجم مقاييس اللغة (تبع).
٢٥٨. تعجم مقاييس اللغة (ولي) (بتصرف).
٢٥٩. معجم مقاييس اللغة (أذى) (بتصرف).
٢٦٠. ذكرت في سورة البقرة ١٦١٨/٢.
٢٦١. صفة مشبهة على وزن فعيل وهي من باب فرح. المفردات في غريب القرآن (غني) (بتصرف).
٢٦٢. معجم مقاييس اللغة (غني).
٢٦٣. نفسه (غني) (٢٥١).
٢٦٤. سورة البقرة (٢٦٣).
٢٦٥. سورة الضحى (٨).
٢٦٦. سورة النساء (٦).
٢٦٧. سورة البقرة (٢٧٣).
٢٦٨. المفردات في غريب القرآن (غني) (بتصرف).
٢٦٩. سورة البقرة (٢٦٣).
٢٧٠. تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٦٤/٣ (بتصرف) كذلك تفسير القرطبي ١١١١٧/٢ (بتصرف). كذلك التفسير الكبير ٤٩/٧ (بتصرف).
٢٧١. معجم مقاييس اللغة (حلم).
٢٧٢. نفسه (حلم).
٢٧٣. المفردات في غريب القرآن (حلم).
٢٧٤. سورة الطور (٣٢).
٢٧٥. المفردات في غريب القرآن (حلم).
٢٧٦. سورة البقرة (٢٦٣).
٢٧٧. الكناية مبحث بلاغي لطيف، وهي مصدر كنيت بكذا عن كذا إذا تركت التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه كأن يقال فلان طويل النجاد أي طويل القامة، والكناية عن الشيء لا تنافي الحقيقة فطول النجاد لا يمنع طول القامة بل يلزمه، فضلاً انظر تفصيل ذلك في معجم البلاغة العربية الدكتور بدوي طبانة. ص٥٩٢ (بتصرف).
٢٧٨. سبق تعريف التأويل بهامش رقم (٩٢) من هذا البحث وهو هنا ما يجري مجرى المثل.

٣٠٨. سورة الصبح (٣٨).
٣٠٩. سورة البقرة (٢٥١).
٣١٠. معجم مقاييس اللُّغة (ردَّ).
٣١١. المفردات في غريب القرآن (ردَّ).
٣١٢. تفسير البحر المحيط ٦/٤٢٠.
٣١٣. الكشاف ٣/١٤٦- ١٤٩ أيضاً نفس المعنى في روح المعاني ١٨/٦١ (بتصرُّف).
٣١٤. قد تتقدم بعض المتعلَّقات في الجملة على بعض لأسباب بلاغيةٍ منها الاهتمام بشأن المقدَّم واختصاصه به. انظر تفصيل ذلك في التلخيص في علوم البلاغة ص١٢٤- ١٢٥ (بتصرُّف).
٣١٥. روح المعاني ١٨/٦٢.
٣١٦. التفسير الكبير ٢٣/١١٨ (بتصرُّف).
٣١٧. الإلتفات هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف عنه. وقيل هو الانتقال من غيبة إلى خطاب، ومن خطاب إلى غيبة والتعريف الأول أعم وأكثر شمولاً للإلتفاتات كلها. وقد سمي بشجاعة العربية أيضاً. فصلاً انظر تفصيل ذلك في كتاب الطراز ٢/١٣٢ (بتصرُّف) كذلك معجم البلاغة العربيةُ ص٦١٤ (بتصرُّف).
٣١٨. المفردات في غريب القرآن (وصف).
٣١٩. سورة الصَّمد (١١٦).
٣٢٠. المفردات في غريب القرآن " وَصَفَ " (بتصرُّف).
٣٢١. سورة الصَّافَّات (١-١٨).
٣٢٢. المفردات في غريب القرآن " وَصَفَ " (بتصرُّف).
٣٢٣. نوع الإيجاز هنا هو إيجاز القصر وهو إيراز المعاني الكثيرة في لفظ يسير ولا حذف فيه. فصلاً انظر تفصيل ذلك في التلخيص في علوم البلاغة ٢١٤ (بتصرُّف).
٣٢٤. انظر الآيات قبلها سورة المؤمنون من أول السُّورة إلى آية (٩٥)، ثم الآيات بعدها من نفس السُّورة إلى آخرها.
٣٢٥. سورة المؤمنون (٩٦).
٣٢٦. النَّظم القرآني في القرآن، عبد المتعال الصعيدي ص٢٠٩ المطبعة النموذجية مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز (بتصرُّف).
٣٢٧. سورة المؤمنون (٩٦) "موضوع الدراسة".
٣٢٨. سورة فُصِّلَت (٣٤).
٣٢٩. سورة المؤمنون (٩٦).
٣٣٠. سورة فُصِّلَت (٣٤).
٣٣١. سورة المؤمنون (٩٦).
٣٣٢. سورة فُصِّلَت (٣٤).
٣٣٣. يشترط علماء البلاغة وعلى رأسهم الشيخ عبدالقاهر الجرجاني ضرورة وجود قرينة أو دليل

مصادر البحث ومراجعـه:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**. محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣ ـ **أساس البلاغة**. جار الله الزمخشري، تحقيق عبدالرحيم محمود، عرف به الأستاذ أمين الخولي، ط سنة ١٩٨٢م، دار المعرفة - بيروت.

٤ ـ **أسباب النُّزول**. أبو الحسن محمد الواحدي النَّيسابوري وبهامشه الناسخ والمنسوخ، أبو القاسم هبة الله بن سلام أبي النصر، ط(بدون) مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة.

٥ ـ **أسباب النُّزول**. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق وتعليق فرتي أبو عميرة، ط(بدون) مكتبة نصير.

٦ ـ **إلاتقان في علوم القرآن**. جلال الدين السيوطي، ط الأزهريَّة المصرية سنة ١٣١٨هـ.

٧ ـ **الأسس النفسية للنُّمو من الطفولة إلى الشيخوخة**. د. فؤاد البهي السيد ط١، دار الفكر العربي - القاهرة

٨ ـ **الإيضاح في علوم البلاغة**. الخطيب القزويني، شرح وتحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، ط٣ سنة ١٩٧١م، دار إحياء الكتب العربية - بيروت.

٩ ـ **البلاغة العربية فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)**. د. فضل عباس، سلسلة بلاغتنا ولغتنا (٢) ط١ سنة ١٩٨٧م، دار الفرقان للنشر والتوزيع - الأردن.

١٠ـ **البلاغة العربية في ثوبها الجديد**. د. بكري شيخ أمين (علم المعاني) ط١ سنة ١٩٨٢م دار العلم للملايين - بيروت.

الأنصاري القرطبي، كتاب الشعب - دار الشعب.
٢١. **التفسير الكبير**. الإمام الفخر الرازي، ط٣، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٢٢. **التلخيص في علوم البلاغة**. جلال الدِّين القزويني الخطيب، ضبط وشرح البرقوقي ط سنة ١٩٠٤م، دار الكتاب العربي - بيروت.
٢٣. **تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع**. محمد بن عبدالرحمن القزويني الخطيب. ضبط وشرح عبدالرحمن البرقوقي، ط الأخيرة، دار إحياء الكتاب - بيروت.
٢٤. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**. أبوجعفر محمد بن جرير الطَّبري، ط٣ سنة ١٩٦٨م، شركة ومطبعة ومكتبة مصطفى الحلبي وشركاه - القاهرة.
٢٥. **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحويَّة وصرفية هامَّة**. محمود صافي طبعة فريدة بإشراف اللجنة العلمية بدار الرشيد، دار الرشيد - دمشق.
٢٦. **حروف المعاني**. أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق د. علي توفيق الحَمد، ط٢ سنة ١٩٨٦م، مؤسسة الرسالة، دار الأمل - الأردن.
٢٧. **خصائص التراكيب. دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني**. د. محمد أبوموسى، ط٢ سنة ١٩٨٠م، مكتبة وهبة - القاهرة.
٢٨. **دلائل الإعجاز**. عبدالقاهر الجرجاني، تعليق وشرح د. محمد عبدالمنعم خفاجي، ط سنة ١٩٧٦م مكتبة القاهرة.
٢٩. **ديوان النَّابغة** (من مجموع خمسة دواوين)، ط القاهرة سنة ١٢٩٣هـ.
٣٠. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني**. أبو الفضل الألوسي، ط جديدة منقحة ومصححة. دار الفكر - بيروت.

٤١. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد عبدالكريم. المعروف بابن الأثير الموصلي. تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ط سنة ١٩٩٠م، المكتبة العصرية.

٤٢. **معجم البلاغة العربية**. د. بدوي طبانة، ط مزيدة ومنقحه دار المنارة- جدة، دار الرفاعي- الرياض.

٤٣. **معجم مقاييس اللُّغة**. أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبدالسلام هارون، ط١ سنة ١٣٦٦هـ القاهرة، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٤٤. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي لمجموعة من المستشرقين نشرة دا، ى، ونسنك سنة ١٩٣٦م مكتبة بريل.

٤٥. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**. وضع محمد فؤاد عبدالباقي تقديم منصور فهمي، مطابع الشعب.

٤٦. **المفردات في غريب القرآن**. الراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط محمد سيِّد كيلاني، دار المعرفة- بيروت.

٤٧. **من بلاغة القرآن**. د. أحمد أحمد بدوي، ط سنة ١٩٥٠م، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

٤٨. **من علوم القرآن**. د. فؤاد علي رضا، ط١ سنة ١٩٨٢م، دار القرآ- بيروت.

٤٩. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي. ط٢ دار الكتاب الإسلامي - القاهرة.

٥٠. **النظم الفني في القرآن**. عبدالمتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالإسكندرية.

٥١. **النَّهر المَاد من البحر المحيط**. محمد بن يوسف (أبو حيان الأندلسي الغرناطي)، هامش البحر المحيط، ط٢ سنة ١٩٨٢م.

تصويب الرسالة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٧٦	٣ من الأسفل	بدر مناهم	نفس منا لهم
٢٨٠	٦ من آخر	وفينا الاستهال	وفينا الهمة العالي
٢٨٦	١٣ (ب)	رأسه الماء	رأسه الماء
٢٨٦	٥ من آخر	أو بعض السيارة	أو في بعض السيارة
٢٨٦	٩ من آخر	إذا وصلته مرة	إذا وصلته مرة
٢٨٧	٢ من آخر	أي صدقة لم يحتسب	أي صدقة لم يحتسب
٢٨٨	٨ من الأسفل	بالله	بالله
٢٨٧	٤ من الأسفل	لفظ الموت	لفظ الموت
٢٨٧	٣ من آخر	الحمد لله المصور	الحمد لله المصور
٢٩٤	٢ من الأسفل	مع بر وصلة	مع بر وصلة
٣٠١	٥ من الأسفل	شأن النظام الفني	شأن النظام الفني
٣٠١	٤ من الأسفل	ما هو في أصل	ما هو أصل
٣٠٣	١٣ من الأسفل	والعاصمين ظلوم	والعاصين ظالم
٣٠٤	٣ من الأسفل	الرحمانية الأربعة	الرحمانية الأربعة
٣٠٦	٨ من آخر	إذ بيت نصاً	إذ بيته نصاً
٣١١	١٠ من آخر	للمآرب	إلى مآرب
٣١٧	٣ من آخر	بحالة	بحاله
٣٢٧	٨ من آخر	بذ الجهاد	لذ الجهاد
٣٢٨	١ من الأسفل	الذين عند ربهم درجات	الذين عند ربهم درجات
٣٣٥	٩ من آخر	يرحم بعضنا بعضاً	يلوم بعضنا بعضاً
٣٤٧	٥ من آخر	وبينا رحمه الله	وبنا رحمه الله
٣٤٩	١ من الأسفل	الدراسات جيدة	الدراسات جيدة
٣٦٦	٦ من الأسفل	الجهاد جهده	الجهاد جهده
٣٦٦	٥ من الأسفل	والصفة الثانية	والصفة الثانية
٣٦٥	١٠ من الأسفل	على نفسه سورة	على نفسه سورة
٣٦٥	٧ من آخر	قد يتوهن الوطنية	قد يتوهن الوطنية

٣١. **سنن ابن ماجة**. (الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني)، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ط سنة ١٩٥٥م، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة.
٣٢. **شروح التلخيص**. مختصر العلامة سعد الدّين التفتازني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدّين السُّبكي. ط(بدون)، دار السرور، بيروت - لبنان.
٣٣. **صحيح مسلم**. الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج. شرح الإمام النووي ط٢ سنة ١٩٧٢م، دار الفكر، بيروت، و ط بدون (غير مشروحه) مطبعة عيسى الحلبي وشركاه.
٣٤. **فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدّراية من علم التفسير**. محمد الشوكاني، ط سنة ١٩٦٤م شركة مصطفى الحلبي وشركاه.
٣٥. **فقه السنة**. السّيد سابق. الطبعة الشرعية السابعة سنة ١٩٨٥م، دار الكتاب العربي - بيروت.
٣٦. **في ظلال القرآن**. سيّد قطب، الطبعة الشرعية الحادية عشرة سنة ١٩٨٢م، دار الشروق - جدة.
٣٧. **القرآن المعجزة الكبرى**. محمد أبوزهرة (ط بدون) دار الفكر العربي - القاهرة.
٣٨. **كتاب الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**. يحيى بن حمزة العلوي اليمني، ضبط وتحقيق جماعة من العلماء، ط سنة ١٩٨٢م، دار الكتب العلمية - بيروت.
٣٩. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، تحقيق محمد الصادق قمحاوي الطبعة الأخيرة سنة ١٩٧٢م شركة ومطبعة مصطفى الحلبي وشركاه.
٤٠. **لسان العرب**. ابن منظور، جمال الدّين بن مكرم الأنصاري، طبعة مصورة عن طبعة بولاق المؤسسة المصرية للنشر.

١١. **البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان ومعترك الأقران**. للإمام السيوطي اختيار وتعليق وتحقيق وتهذيب د. السَّيد الجميلي، ط سنة ١٩٩٣م، مؤسسة مختار للنشر وتوزيع الكتب- القاهرة.

١٢. **تأمُّلات في سورة البقرة**. أ. د. حسن محمد باجوده، ط١ سنة ١٤١٢هـ، مكتبة مصر.

١٣. **تاج العروس من جواهر القاموس**. أبو الفيض السيد محمد مرتضى الزبيدي، ط١ سنة ١٣٠٦هـ الطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر منشورات مكتبة الحياة لبنان- بيروت.

١٤. **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثَّقافي**. د. حسن إبراهيم حسن، ط٨ سنة ١٩٧٤م، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.

١٥. **تفسير ابن جُزي**. محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، إشراف عليه لجنة تحقيق التراث في دار الكتاب العربي سنة ١٩٨٣م، دار الكتاب العربي- بيروت.

١٦. **تفسير ابن كثير**. أبو الفداء بن كثير القرشي الدِّمشقي، ط ١٩٨١م، دار الفكر- بيروت.

١٧. **تفسير البحر المحيط**. محمد أبو حيان الأندلسي الغرناطي، ط٢ سنة ١٩٨٢م، دار الفكر- بيروت.

١٨. **تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)**. علاء الدِّين علي بن محمد ابن إبراهيم البغدادي، وبهامشه تفسير البغوي لأبي محمد الحُسن بن مسعود الفراء البغوي، ط٢ سنة ١٩٥٥م، مكتبة مصطفى الحلبي وشركاه - القاهرة.

١٩. **تفسير القرآن الحكيم (المنار)**. محمد رشيد رضا، ط٢، دار المعارف- القاهرة.

٢٠. **تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن**. أبو عبدالله محمد بن أحمد

في الكلام بدلٌ على ذلك المحذوف وإلا لسمع ضرباً من الألغاز. فضلاً انظر كلام الشيخ في دلائل الإعجاز ص١١٨ كذلك عند الخطيب القزويني في الإيضاح في علوم البلاغة تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي ص٢٩٩ [يتصرُّف] ط٥ سنة ١٩٨٠م دار الكتاب اللبناني بيروت.

٣٢٤. سورة المؤمنون (٩١) (٩٢).

٣٢٥. سورة فُصِّلت (٣٤).

٣٢٦. سورة فُصِّلت (٢٥) (٢٩).

٣٢٧. سورة فُصِّلت (٣٠) (٣٢).

٣٢٨. سورة فُصِّلت (٣٥) (٣٦).

٣٢٩. سورة المؤمنون (٩١).

٣٣٠. سورة فُصِّلت (٣٤).

٣٣١. سورة النِّساء (٨٣).

٢٧٩. روح المعاني ٢٤/٣ (بتصرُّف).
٢٨٠. تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٦٤/٣ (بتصرُّف).
٢٨١. سورة البقرة (٢٦٣).
٢٨٢. سورة البقرة (٢٦٣).
٢٨٣. سورة البقرة (٢٦٤).
٢٨٤. القرآنُ المعجزة الكبرى محمد أبو زهرة، ص٢٧٤ ط (بدون) دار الفكر العربي.
٢٨٥. نفسه، ص٢٦٦.
٢٨٦. سورة البقرة (٢٦٣).
٢٨٧. سورة البقرة (٢٦١) (٢٦٢).
٢٨٨. في ظلال القرآن ٢٠٨/١ (بتصرُّف).
٢٨٩. سورة البقرة (٢٦٤) (ه٢٦٥).
٢٩٠. سورة البقرة (٢٦٤).
٢٩١. سورة البقرة (٢٦٥).
٢٩٢. موضوع الدِّراسة هنا.
٢٩٣. سورة البقرة، الآيات (٢٦١) (٢٦٢) فبلغها، والآيات (٢٦٤) إلى (٢٧١) كذلك (٢٧٦) (٢٧٧) بعدها.
٢٩٤. سورة البقرة (٢٦٣).
٢٩٥. سورة إبراهيم (٢٤) (٢٥).
٢٩٦. سورة البقرة (٢٦٣).
٢٩٧. سورة إبراهيم (٢٤) (٢٥).
٢٩٨. سنن ابن ماجة ١٢١١/٢.
٢٩٩. سورة النِّساء (١٤٨).
٣٠٠. سورة النِّساء (٨٩).
٣٠١. سورة المؤمنون (٩٦).
٣٠٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٨- ٥١ (بتصرُّف).
٣٠٣. تفسير ابن جزيّ، محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي ص٤٦٦. أشرفت عليه لجنة تحقيق التراث في دار الكتاب العربي، دار الكتاب العربي ط١٩٨٣م (بتصرف) وهذا الرأي مذكور أيضاً في الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل [أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ٤٦٣ هـ (الأخيرة) عام ١٩٧٦م مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي، مصر].
٣٠٤. جامع البيان ٥١/١٨ (بتصرُّف).
٣٠٥. معجم مقاييس اللُّغة (دَفَعَ).
٣٠٦. المفردات في غريب القرآن (دَفَعَ).
٣٠٧. سورة النِّساء (٦).

٢٢١. سورة آل عمران (١١٠).
٢٢٢. سورة النِّساء (٣٦).
٢٢٣. سورة البقرة (٢١٥).
٢٢٤. سورة النِّساء (٣٦).
٢٢٥. إرشاد العقل السليم لمزايا القرآن الكريم ١٧٦/٢ (بتصرُّف).
٢٢٦. سورة النِّساء (٣٦).
٢٢٧. سورة البقرة (٢١٥).
٢٢٨. سورة النِّساء (٣٦).
٢٢٩. فضلاً انظر (أنواع البر مع الأسئلة) ص ٨-٩ من هذا البحث.
٢٣٠. سورة البقرة (٢٦٣).
٢٣١. سورة البقرة (٢٦٢).
٢٣٢. سورة البقرة (٢٦٣).
٢٣٣. تفسير ابن كثير ٣١٩/١ (بتصرُّف).
٢٣٤. تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن (ويهامشه تفسير البغوي، محمد الحسن بن مسعود الفراء البغوي ٢٨٤/١ ص٢ سنة ١٩٥٥م مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وشركاه- القاهرة.
٢٣٥. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٥٨/١ (بتصرُّف).
٢٣٦. تفسير الخازن ٢٨٤/١ (بتصرُّف) كذا في تفسير ابن كثير ٢١٩/١ (بتصرُّف).
٢٣٧. سورة البقرة (٢٦٣).
٢٣٨. معجم مقاييس اللُّغة (قول).
٢٣٩. المفردات في غريب القرآن (قول) . (بتصرُّف).
٢٤٠. سورة المجادلة (٨).
٢٤١. المفردات في غريب القرآن (قَوْل).
٢٤٢. سورة يس (٧).
٢٤٣. المفردات في غريب القرآن (قَوْل).
٢٤٤. معجم مقاييس اللُّغة (عرف).
٢٤٥. معجم مقاييس اللُّغة (جمل).
٢٤٦. الإيجاز هنا إيجاز القصر وقد سبق شرحه في هامش رقم (١٠).
٢٤٧. معجم مقاييس اللُّغة (بَشر).
٢٤٨. تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ١١١٨/٢ (بتصرُّف).
٢٤٩. تقدم تعريف الإيجاز في هامش رقم (٤٠).
٢٥٠. لسان العرب (خير).
٢٥١. البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان ومعترك الأقران للإمام السيوطي اختيار وتطبيق وتحقيق وتهذيب الدكتور السَّيد الجميلي ص٢١٦، ط سنة ١٩٩٢م مؤسسة مختار للنشر وتوزيع الكتب

١٦٩. البحر المحيط ٢٤٤/٣ (بتصرُّف) كذا في ظلال القرآن، سيِّد قُطب ٦٤٩/٢ طبعة جديدة مشروحة، ط الخامسة عشر ١٩٨٢م، دار الشروق (بتصرُّف).

١٧٠. سيقت الإشارة إلى فضل اختيار لفظ الوالدين على الأبوين في دراسة الآية (٢١٥) من سورة البقرة (وهي الأولى في هذا البحث).

١٧١. معجم مقاييس اللُّغة (حسن).

١٧٢. نفسه (حسن) (بتصرُّف).

١٧٣. المفردات في غريب القرآن، (حسن).

١٧٤. جاء في معنى (أواو) أنها تكون عطفاً ولا دليل على أن الأول قبل الثاني، فضلاً انظر في ذلك كتاب حروف المعاني، أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي تحقيق د. علي توفيق الحمد ص٣٦، ط٢ سنة ١٩٨٦م مؤسسة الرسالة- دار الأمل الأردن (بتصرُّف).

١٧٥. معجم مقاييس اللُّغة (فضل) (بتصرُّف).

١٧٦. المفردات في غريب القرآن (فضل) (بتصرُّف).

١٧٧. سورة النِّساء (٣٦).

١٧٨. تفسير البحر المحيط ٢٤٤/٣ (بتصرُّف).

١٧٩. سبق تعريف الإيجاز في الهامش رقم (٤٠).

١٨٠. تفسير البحر المحيط ٢٤٤/٣ (بتصرُّف).

١٨١. فضلاً انظر ما جاء في دراسة الآية السابقة عن البقاعي ص١٨-١٩ من هذا البحث.

١٨٢. التفسير الكبير ٩٦/١٠ (بتصرُّف).

١٨٣. سورة الضُّحى (١٠).

١٨٤. في قراءة أخرى (والجار ذا القربى) بالنَّصب وذلك للاختصاص لما له من حقِّ (الجوار والقرابة) جاء ذلك في التفسير الكبير (٩٦/١٠) (بتصرُّف).

١٨٥. سورة النِّساء (٣٦).

١٨٦. التفسير الكبير ٩٦/١٠.

١٨٧. سورة يوسف (٨٢) والتقدير واسأل أهل القرية.

١٨٨. سورة الكهف ٧٩ والتقدير وكان وراءهم ملك ظالم يأخذ كلَّ سفينة صالحة غصباً.

١٨٩. سنن ابن ماجه ١٢١١/٢.

١٩٠. سورة النِّساء الآيتان (٣٤)-(٣٥).

١٩١. صحيح مسلم ٤٠٠/١، (باب فضل النَّفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيَّعهم أو حبس نفقتهم عنهم).

١٩٢. نفسه ٤١٣/١ (باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى).

١٩٣. البحر المحيط ٢٤٥/٣ (بتصرُّف).

١٩٤. مقاييس اللُّغة (ملك).

١٩٥. نفسه (ملك) (بتصرُّف).

١٩٦. نفسه (ملك) ويرجِّح أن الصَّواب (المِلْكة) بكسر الميم وسكون اللام.

٩١٣. سورة البقرة (٢١٥).
٩١٤. تفسير البحر المحيط ١٤٣/٢ (بتصرُّف).
٩١٥. سورة البقرة (٢١٥).
٩١٦. دلائل الإعجاز ١٢٩.
٩١٧. فقرةً انظر ص٩ ٦. من هذا البحث.
٩١٨. سورة البقرة (٢١٥) (الآية موضع الدراسة).
٩١٩. سورة التوبة (٦٠).
٩٢٠. فقرةً انظر ص١٠ ١١. من هذا البحث.
٩٢١. سورة التوبة (٦٠).
٩٢٢. تاريخ الإسلام السياسي والدِّيني والثقافي، حسن إبراهيم حسن ٢٠٨/١، طه سنة ١٩٧٦م مكتبة النَّهضة المصريَّة (بتصرف).
٩٢٣. تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٢١ه/١٠.
٩٢٤. سورة البقرة (٢١٥).
٩٢٥. سورة التَّوبة (٦٠).
٩٢٦. الكشَّاف ١٩٧/٢ (بتصرُّف).
٩٢٧. نفسه ١٩٨/٢.
٩٢٨. الرقاب: أي فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر أما الغارمون فهم الذين عليهم غرامة من المال بدون ركبتهم وتضُر عليهم أدائها على أن تكون في غير معصية الله.
وفي سبيل الله: الجهاد أو تجهيز الغزاة أو الحجاج والمنقطعين.
٩٢٩. تفسير القرآن الحكيم (المنار) ٥٠٨/١٠ (بتصرُّف).
٩٣٠. فقه السنة، السيد سابق ٢٩٩/١ ط الشرعية السابعة عام ١٩٨٥ دار الكتاب العربي، بيروت (بتصرُّف).
٩٣١. سورة النِّساء (٢٨).
٩٣٢. سورة البقرة (٢١٥)، وسورة التَّوبة (٦٠).
٩٣٣. سورة النِّساء (٢٨).
• من أمثلة برِّ النَّاس في الأفعال.
٩٣٤. سورة النِّساء (٣٦).
٩٣٥. سورة الذَّاريات (٥٦).
٩٣٦. سورة البقرة (٨٣).
٩٣٧. سورة الأنعام (١٥١).
٩٣٨. سورة الإسراء (٢٣).
٩٣٩. سورة الإسراء (٢٣).
٩٤٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٧٧/٥ (بتصرُّف) كذا تفسير ابن كثير ٤٩٥/١ (بتصرُّف).

العربية- القاهرة).

٦٧ ـ سورة البقرة (٢٤٥).

٦٨ ـ قد تتقدّم بعض متعلقات الفعل على بعض لأسباب بلاغيّة منها أهمّية المتقدّم وتعظيم شأنه فضلاً انظر في ذلك:
خصائص التّراكيب- دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني- د. محمد أبو موسى- ص٢٩٦- ط٢ سنة ١٩٨٠م- مكتبة وهبة القاهرة (بتصرّف).

٦٩ ـ سورة الإسراء (٢٢).

٧٠ ـ سورة النّساء (٣٦).

٧١ ـ التفسير الكبير ٦/٢٤.

٧٢ ـ الأسس النفسيّة للنّمو من الطّفولة إلى الشّيخوخة- د. فؤاد البهيّ السّيد- ص٣٥٦ ط١ دار الفكر العربي القاهرة (بتصرّف).

٧٣ ـ معجم مقاييس اللّغة- (قرب).

٧٤ ـ التفسير الكبير ٦/٢٤ (بتصرّف).

٧٥ ـ فتح القدير الجامع بين فنّي الرّواية والدّراية من علم التفسير- محمد بن علي بن محمد الشوكاني ١/١٧٢- مكتبة مصطفى الحلبي وشركاه (بتصرّف).

٧٦ ـ سورة محمد (٢٢)- (٢٣).

٧٧ ـ المفردات في غريب القرآن- (يتم).

٧٨ ـ سورة الضحى (٦).

٧٩ ـ المفردات في غريب القرآن (يتم).

٨٠ ـ سورة النّساء (١٠).

٨١ ـ فضلاً انظر هذا الرأي في ص(١١) من هذا البحث.

٨٢ ـ التفسير الكبير ٦/٢٤ (بتصرّف).

٨٣ ـ المفردات في غريب القرآن (سكن).

٨٤ ـ تتأوّد في سورة البقرة ٣/١٢٢ (بتصرّف).

٨٥ ـ النّهر الماد من البحر المحيط محمد بن يوسف (أبو حيان الأندلسي الغرناطي) هامش البحر المحيط ٢/١٤٢ (بتصرّف) وقد ذكرنا في هامش رقم ٦٨ من هذا البحث تقديم بعض المتعلقات على بعض هو أهمّية ذلك المتقدّم ومكانته.

٨٦ ـ تفسير البحر المحيط ٢/١٤٣ (بتصرّف).

٨٧ ـ يذكر السّند في البحلة لأسباب بلاغيّة منها الاحتياط لضعف التعويل على القرينة الموجودة في البحلة. فضلاً انظر بقية الأسباب في:
تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع- محمد عبدالرحمن الخطيب القزويني ص٩٦، ص١٧ ط الأخيرة- مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه القاهرة- (بتصرّف).

٨٨ ـ سورة البقرة (٢١٥).

٨٩ ـ تفسير البحر المحيط ٢/١٤٣.

٢٨ - سورة البقرة (٢٦٢)

٢٩ - سورة إبراهيم (٢٤) - (٢٥).

٣٠ - سورة البقرة (٢١٥).

٣١ - أسباب النزول، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق السيوطي بتحقيق وتنسيق/ فرتي أبو عميره، ص٤٠، ط (بدون)، مكتبة نصير.

٣٢ - أسباب النزول ويهامشه الناسخ والمنسوخ، أبو الحسن بن محمد الواحدي النيسابوري ص٤٦، ط (بدون)، مكتبة دار الثقافة الدينية.

٣٣ - أسباب النزول، السيوطي، ص٤٠ (بتصرف).

٣٤ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ٢٤٤/٢، ط٣ عام ١٩٦٨، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر (بتصرف).

٣٥ - تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ٢٥٢/١، ط/سنة ١٩٨١م، دار الفكر، بيروت.

٣٦ - سورة البقرة (٢١٥).

٣٧ - المفردات في غريب القرآن، (سأل).

٣٨ - تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ١٤٣/٢، ط٢ سنة ١٩٨٣ دار الفكر بيروت (بتصرف).
كذا في إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، (أبو السعود محمد بن محمد العمادي ٢١٦/١، ط (بدون) دار إحياء التراث العربي بيروت- لبنان (بتصرف).

٣٩ - تفسير البحر المحيط، ١٤٢/٢.

٤٠ - الإيجاز مبحث بلاغي جميل يهتم به علم المعاني وهو:
إيراد المعنى الكثير في لفظ يسير وهو نوعان/ إيجاز قصر، وهذا لاحذف فيه.
وإيجاز الحذف وهو الذي هنا وقد يكون المحذوف مفرداً أو جملة أو عدة جمل فضلاً انظر تفصيل ذلك في: التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني الخطيب، ضبط وشرح عبدالرحمن البرقوقي ص٢٠٩- ٢١٠، ط٢ سنة ١٩٣٢م، دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان (بتصرف).
كذلك معجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة، ص٧٠٢- ٧٠٣، ط٣ مزيدة ومنقحة دار المنارة جدة- دار الرفاعي، الرياض (بتصرف).

٤١ - ذكر هذا الرأي في التفسير الكبير- الفخر الرازي ٢٣/٦، ط٣ دار إحياء التراث العربي، بيروت (بتصرف).

٤٢ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي ١٠٦/٢ طبعة جديدة مصححة ومنقحة سنة ١٩٨٣م، دار الفكر بيروت كما ذكر نفس الرأي في تفسير القرآن الحكيم (الشهير بتفسير المنار) محمد رشيد رضا ٣٠٩/٢ ط٢ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت (بتصرف)

٤٣ - أسلوب الحكيم (من مباحث علم المعاني) وهو أحد المسندات المعنوية للكلام وهو (أن تحدث

النادرة بل الفذّة في اختيار اللّفظ في مكانه الأمر الذي يجعل القارىء أو السّامع لا يجد نُبواً في لفظ أو ركاكة في تركيب أو نشازاً في جرس. بل فصاحة وبلاغة وتناسقاً صوتياً مناسباً للمعنى، وإن اختلف سياق آية عن غيرها في أداء ذلك المعنى وقد بدا ذلك مثلاً في المقارنة بين الآيتين الكريمتين:

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾. [المؤمنون: ٩٦]

وقوله تعالى:

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

[فصّلت: ٣٤]

وهذه النتيجة تؤكّد أنّ القرآن الكريم كله- على تعدُّد سورة وكثرة آياته الشريفات- هو على درجة سامية من بلاغة التّركيب وفصاحة اللّفظ وجمال النّظم ودقته لا نستطيع تفضيل إحدى الآيات على الأخرى من حيث قوة السبك وعذوبة الجرس إلا أن بعض هذه الآيات قد يتوخى الإطناب مرة أو الإيجاز أخرى وذلك حسب احتياج المعنى ومقتضى الحال وهنا نذكر قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كما أن عجز الآية في هذا السياق ناسب أيضاً الآيتين التاليتين لها مباشرة وهي قوله تعالى[٣٣٨]: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

إذ إن تحويلَ العدو إلى ما يشبه الصَّديق أو النَّاصر الحميم شيء عزيز على النَّفس صعب المنال لذا لا يمكن الوصول إليه إلا بما هو أصعب منه وهو الصَّبر، والصَّبر لا يُنال إلا بمجاهدة النَّفس والهوى اللَّذين قد يقودهما الشَّيطان إلى أرذل الأمور وسفاسفها - والعياذ باللَّه-.

وبعد.. فبالعودة إلى الآيتين الكريمتين في قوله تعالى[٣٣٩]: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: [٣٤٠] ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

نشعر أن كلاً من الآيتين الكريمتين لا تستغني إحداهما عن الأخرى في توضيح المعنى وإتمامه- على اختلاف السُّورتين الواردتين فيهما- فآية سورة (المؤمنون) تؤكِّد جانب علم اللَّه- عزَّ وجلَّ- بأقوال المشركين وأفعالهم، وآية سورة فصلت تنبِّه إلى ضرورة تحرِّي البرِّ في القول والعمل وعدم تساوي الخير والشر وانتصار الخير على غيره وإن طالت مدَّة الصَّبر على ترويض النَّفس وتهذيب الطِّباع.

هذا من جهة المعنى. أمَّا من حيث بلاغة كل منهما فلا نجد تفاضلاً بينهما إذ إنَّ كل آية في القرآن الكريم بصفة عامَّة لا تعلو على غيرها في فصاحة اللَّفظ وجودة التركيب وبلاغته وجمال النَّظم وعذوبته. وصدق سبحانه في قوله تعالى[٣٤١]:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾.

كل منهما ولا يفضل إحداهما على الأخرى، بل يضفي عليها جمالاً يخصّها في سياقها ولا ينقص من فضلها عن غيرها شيئاً وذلك هو شأن القرآن الكريم دائماً على كثرة آياته وتشابه سياقه واتّحاد بعضها في معانيها، فالآية الكريمة[٢٣١]:

﴿ ادفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾.

نلاحظ ذكر لفظ "السّيئة" فيها بعد قوله ﴿ بالّتي هي أحسنُ ﴾ رغم عدم ذكرها في آية سورة فُصّلت بعد قوله "بالّتي هي أحسن" حيث يقول تعالى[٢٣٢]: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ... ﴾، إلخ الآية.

ولعلّ السبب في ذكرها في آية سورة (المؤمنون) هو عدم وجود قرينة في السياق نفسه تدلُّ على المحذوف[٢٣٣].

أمّا في آية سورة (فُصّلت) فلأنّ القرينة في نفس نصّ الآية تدلُّ على ذلك المحذوف في قوله تعالى في صدر الآية: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ﴾.

فيكون تقدير الكلام- والله أعلم- ادفع بالّتي هي أحسن السّيئة، وحذفها أبلغ هنا بينما ذكرها في الأولى أبلغ، والسياق القرآني يتوخّى أسمى درجات البلاغة في كلّ آية وفي كل لفظة من ألفاظه- كما هو معلوم-.

ونلاحظ أيضاً أن في سورة (المؤمنون) تذييل الآية بالتّأكيد على علمه- عز وجل- بأقوال المشركين وأفعالهم بقوله- عزّ وجلّ-: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾.

بينما يأتي عجز الآية في سورة (فُصّلت) ببيان النّتيجة من ذلك العمل بقوله- عز وجل- من قائل: ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ

يدلّ على انتهاء الحديث كما هو - معلوم - بينما الكفار لا يكفّون عن إيذاء الرسول ﷺ بوصف المولى - عز وجل - بما تسوّل لهم أنفسهم من صفات هو منزّه عنها - سبحانه - فعند تأمّل الجملة "يَصِفُونَ" ودراستها نرى أنها من الفعل الثلاثي (وَصَفَ).

(والوصف هو ذكر الشيء بحليته ونعته، والصِّفة الحالة التي عليها الشيء من حليته ونعته كالزِّنة التي هي قدر الشيء، والوصف قد يكون حقاً وباطلاً)[٣١٨].

قال تعالى[٣١٩]: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾.

وهو تنبيه على أنّ ما يقول الكفار كَذِب[٣٢٠].

ونظيره من القرآن أيضاً[٣٢١]: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

أي أن أكثر صفاته ليس كما يعتقده كثير من النّاس[٣٢٢].

ومن دراسة المادة السابقة يبدو لنا أن ختم الآية بجملة "بِمَا يَصِفُونَ" هو مناسب تمام المناسبة لفواصل السياق الكريم كله فهي على ما فيها من إيجاز بديع[٣٢٣]، - والذي هو سر من أسرار بلاغتها وجمالها - قد ناسبت هذه الجملة من حيث المبنى أيضاً الفواصل الأخرى في السورة الكريمة سواء السابقة لها أو اللاحقة بها[٣٢٤]، فبالنظر إلى تلك الفواصل نلاحظ ختم معظمها بالواو والنون أو الياء والنون[٣٢٥]، أو الياء والميم وهي حروف متقاربة المخارج كما تعلم.

وبدراسة ارتباط الآية بما قبلها وما بعدها في السياق ندرك مطابقتها لمقتضى الحال. . ومناسبتها لهذا السياق فالآية الكريمة:

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾

وردت ضمن الآيات التي تحدثت عن آخبار بعض الرُّسل[٣٢٦]، وهي

وصلته وهو قوله تعالى: ﴿بالتي هي أحسنُ﴾ عوضاً عن القول بالحسنة.. إذ إن في هذه الإطالة في التعبير ما يناسب هذه المعاناة في دفع السَّيئة بالعمل أو القول الحسن فضلاً عن أن لفظ "أحسنُ" يدل على المبالغة لأنه أفعل تفضيل- كما نعلم- وَذكر أبو حيَّان أنه (جاء في صلة الَّتي ليدلَّ على معرفة السَّامع الحالة الَّتي هي أحسن)[٣١٩].

وذكر الزمخشري في ذلك تعليلاً جميلاً في ثنايا النَّصِّ الآتي:

«والمعنى: الصَّفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان، حتَّى إذا اجتمع الصَّفح والإحسان، وبَذل الاستطاعة فيه كانت حسنة مضاعفة إزاء سيِّئة، وهذه قضيَّة قوله: ﴿بالتي هي أحسنُ﴾»[٣٢٠].

ونلاحظ هنا أيضاً تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿بالتي هي أحسنُ﴾ على المفعول به في الآية الكريمة ولم يأت مثلاً ادفع السَّيئة بالتي هي أحسن وإنَّما جاء قوله على هذا النسق: ﴿ادفَعْ بالَّتي هي أحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾.

ونرى أنَّ في تقديم الجار والمجرور هنا نكتة بلاغية وهي للاهتمام بشأن المتقدِّم[٣٢١] إذ إن الأهم هنا كيفيَّة دفع السَّيِّئة وليس مجرد دفعها ومنعها فقط وقيل إنها (محكمة لأن الدَّفع المذكور مطلوب مالم يؤد إلى ثلم الدِّين والإزراء بالمروءة)[٣٢٢].

ولعل أجمل ما قيل هنا أنه- سبحانه- أمر رسوله الكريم بالصَّبر على الكفَّار واحتمال ما يكون منهم من التكذيب وضروب الأذى ودفع كل ذلك بأحسن الأقوال كالسَّلام وبيان الأدلة على أحسن الوجوه، لاسيَّما وأنَّه- عز وجل- أعلم بحالهم منه ومع ذلك فهو لم يقطع نعمه عنهم، وهو أقدر على ذلك- فينبغي أن يكون عليه الصَّلاة والسلام- قد أخذ من ربِّه- عز وجل- المثل

١ ــ المعنى العام:

وُجِّه الخطاب في الآية الكريمة إلى رسول الله ﷺ ليعرض عن أذى المشركين ولا يبادلهم الإساءة بمثلها بل عليه بالصَّفح والغفران- وذلك قبل أن يُؤمر بحربهم- وهذه خلة لا يؤتاها إلا من أوتي القدرة على كظم الغيظ وضبط النَّفس في ذروة الغضب- لذا يخفِّف القرآن الكريم عن المصطفى- صلَّى الله عليه وسلَّم- هذا العبء بقوله ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، أي بما يصفون الله- عز وجل- به وبما يتخذونه من الأكاذيب وبما يقولونه في رسوله الكريم ﷺ من قول السوء وهو- سبحانه- مجازيهم على ذلك[٣٠١].

وقيل المقصود بالذي هي أحسن قوله: " لا إله إلا الله " والسَّيئة هي الشِّرك[٣٠٢].

وقيل المقصود بالتي هي أحسن هو ردُّ السلام على من لقيته من المشركين وإن أساؤوا إليه[٣٠٣]، وخُلاصة الأقوال السابقة هي ضرورة مقابلة الإساءة بالإحسان حتى يقضي الله بأمره ولأنه يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصُّدور.

٢ ، ٣ ــ دراسة الألفاظ والتراكيب:

وعند دراسة النَّص الكريم لُغوياً نلمح من أسرار بلاغته ما نلمحه مثال ذلك مجيء جملة "ادْفَعْ" في بداية الآية الكريمة والتي جاء عن معناها اللُّغوي ما ذكره ابن فارس: «إن الدَّال والفاء والعين أصل واحد مشهور، يدلُّ على تنحية الشَّيء يُقال: دفعت الشَّيء أدفعه دفعاً ودافع الله عنه السوء دفاعاً»[٣٠٤] أي نحاه وأبعده وذكر الراغب الأصفهاني «أن الدَّفع إذا عدِّي بإلى اقتضى معنى الإبانة»[٣٠٥]، مثل قوله تعالى[٣٠٦]: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾.

كما أنها وضعت قاعدة مهمة في التعامل بين أفراد المجتمع المسلم وهي القول الحسن في كلّ الأحوال وسواء كانت الآية قصدت بالقول المعروف الرد على السائل الملحف في السؤال أو مجرد الكلمة الطيّبة- فالعبرة هنا كما ذكرنا بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب- فالبرُّ مطلوب بين الأفراد في هذا المجتمع الذي لا يجمع بين أفراده سوى رباط واحد وكلمة واحدة هي كلمة التوحيد- لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه- ومادام أصل وحدتهم وتألفهم هي كلمة أو قول- لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه- وهي أفضل كلمة معروف فلابُدّ أن تكون الكلمة الطيبة قاعدة راسخة في التعامل بين أفراد المجتمع المسلم. . . بين الغني والفقير والكبير والصغير والحاكم والمحكوم. . والسّيد والمسود. . والزّوج والزّوجة والأب وابنه والرئيس والمرؤوس. . إلخ. حتى تسود المحبة والوئام. . والألفة والاحترام قال تعالى[٢٩٥]:

﴿ . . كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

فالآية الكريمة تؤكّد على هذا المعنى بضرب المثل الحسّي الذي يعطي المعنى العقلي المجرّد صورة وحركة تجعله أكثر قرباً من الأفهام والأذهان وليكون أدعى إلى التنفيذ والإذعان.

وكأن المعنى في آية سورة البقرة كان عبارة عن بذرة الدّعوة إلى قول الخير ثم نمت هذه البذرة في آية سورة إبراهيم فأصبحت شجرة طيبةً مثمرةً تُؤتي أكلها كل حين بدلٌ على ذلك التذييل الذي ختمت به آية سورة البقرة وهو قوله تعالى[٢٩٦]: ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ ، أي غنيٌّ عن الصدقة المتبوعة بالأذى حليم عن تعجيل العقوبة لأمثال هؤلاء الذين لا يتقيدون بما في الآية من أمر بقول المعروف والتغاضي أو الغفران عن المسيئين.

فالآية عبارة عن دعوة إلى قول المعروف وهذه الدّعوة يمكن أن تُلبّى أو

تعالى[٢٨٣]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ...﴾، إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

وهكذا يبدو لنا من هذا التناسب في الفواصل بين معاني الآيات وجرسها أن القرآن الكريم لا يهتمُّ في فواصله فقط بالجرس دون المعنى أو العكس بل يكون الاهتمام فيه بالأمرين على حد سواء يقول الشيخ محمد أبو زهرة في ذلك:

«وبذلك ننتهي إلى الاتفاق على أن القرآن فيه فواصل تتحد فيها القواطع ولعلوّها وسموّها في البلاغة كانت المعاني هي المقصد الأول، وجاءت الألفاظ بجمالها وإشراقها وحسن نغمها تابعة لذلك، وقد يكون اتّحاد المقاطع في الحروف من مظاهر الجمال وحسن النَّغم وفي ذلك قوَّة التأثير بما لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله»[٢٨٤].

ولعلَّنا نلاحظ هذا التلاؤم أيضاً بين ألفاظ الآية جميعاً فلا نجد لفظاً نابياً أو قلقاً في مكانه بل ذلك النَّظم البديع والتَّناسب الواضح الفصيح بين ألفاظ السياق وبين حروف تلك الألفاظ ثم بين تراكيب الآية كلها بل الآيات جميعاً يقول الشيخ أبو زهرة رحمه الله في ذلك أيضاً:

«وإن التلاؤم في ألفاظ القرآن الكريم وجمله وآياته ومواضع الوقف فيه ليس في المخارج فقط، بل هو فيما هو أعلى من ذلك، إنَّما هو في النَّغم وجرس القول فلا تجد حرفاً ينشز عن أخيه، ولا الكلمة عن أختها، ولا الجملة عن لاحقتها، والآية كلّها تكون مؤتلفة النَّغم في الغرض الذي سيقت له، فإن كان إنذاراً كان النَّغم إرعاداً وإن كان تبشيراً كان نسيماً، وإن كان عظة كان تشبيهاً وإن كان توجيهاً لافتاً عما سواه، وهكذا»[٢٨٥].

أمَّا عن مناسبة الآية الكريمة - التي نحن بصدد دراستها[٢٨٦] - لما قبلها من

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾.

وقوله[٢٦٧]: ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾، وذلك لما يرى فيهم من غنى النَّفس الذي منحهم التَّعفُّف والتَّلطُّف[٢٦٨].

والمراد في سياق الآية الكريمة: ﴿ ... وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾[٢٦٩].

هو الضرب الأول وهو عدم الحاجات، لأن الله تعالى غنيٌّ بذاته ومملكوت السموات والأرض عن صدقة عباده فلا يأمر الأغنياء بالعطاء والبذل لحاجته الخاصة- سبحانه- بل ليطهرهم ويزكيهم بذلك، ولينشر الألفة والمحبة بين أفراد المجتمع المسلم وليكون بعضهم بذلك أولياء بعض. وخصلتا المنّ والأذى تتنافيان مع هذا الغرض، لذا فهو- عز وجل- غنيٌّ عن مثل هذه الصدقة المشوبة بالأذى المتضمّن للمنّ فهي في ظاهرها صدقة وفي باطنها ضرٌّ وأذى، أما قول المعروف ففيه أجر وهذه لا أجر فيها[٢٧٠]، ثم يتبع ذلك بصفة مشبّهة أخرى وهي قوله "حَلِيمٌ" وأصل الكلمة "الحاء واللام والميم" وهي: (أصول ثلاثة الأول ترك العجَلة، والثاني تثقُّب الشيء، والثالث رؤية الشيء في المنام، وهي متباينة جداً، تدلُّ على أن بعض اللُّغة ليس قياساً، وإن كان أكثره مقاساً)[٢٧١].

والأصل الأول هو المراد هنا- أي- الحلم وهو خلاف الطَّيش، يقال: (حَلُمْتُ عنه أَحْلُمُ، فأنا حَلِيم)[٢٧٢].

وذكر الراغب أن الحِلْمَ: (ضبْط النَّفس والطبع عن هَيجان الغَضب وجمعه أَحْلَام[٢٧٣] قال تعالى[٢٧٤]: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم ﴾، أي عقولهم وفُسِّر الحِلْمُ بالعقل والعكس بالعكس، لأن الحِلْم من مسبّبات العقل[٢٧٥].

والمراد من الحليم في قوله "حَلِيمٌ" في الآية الكريمة[٢٧٦]، هو ملزوم ذلك

قول الرسول الكريم ﷺ الذي يبين فيه فضل الكلمة الطيبة وأنها تقي من النار وذلك ما روي عن عدي بن حاتم قال: «ذكر رسول الله ﷺ النار فأعرض وأشاح ثم قال: اتقوا النار ثم أعرض وأشاح حتى ظننا كأنما ينظر إليها ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فكلمة طيبة»[٢٥٥].

وقال- عز وجل- مبيناً فضل اللفظ الحسن وعلوه عنده- سبحانه-[٢٥٦]:

﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾.

نعم لعلهم يتذكرون هذا السماء للبر والعمل الصالح فيظل العمل به مستمراً ونلاحظ أيضاً أن السياق الكريم قد جاء بلفظ "صدقة" منكراً ولم يأت به معرفاً وذلك- والله أعلم- ليدل على أن الصدقة تستحق هذا الاسم ولا فرق بين قليلها وكثيرها بل المهم هو النية في إخراجها.

أما قوله تعالى: ﴿يتبعها أذى﴾

فجملة "يتبعها" مادتها "التاء والياء والعين" (وهي أصل واحد لا يشذ عنه من الباب شيء وهو التلو والقفو، يقال: تبعت فلاناً إذا تلوته وأتبعته واتبعته إذا لحقته)[٢٥٧]، ومن المعنى اللغوي السابق تدرك مدى دقة السياق القرآني في اختيار جملة ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى﴾ جملة "يتبعها" هنا على جملة أخرى قد يظن أنها تحل محلها مثل: يليها. إذ إن مادة ولي تعني القرب ومنها أخذ المولى الصاحب والحليف ويمكن أن يقال جلس مما يليني أي يقاربني[٢٥٨]، بينما جملة "يتبعها" تعني القفو والتلو، وهي أكثر دقة ومناسبة للسياق من غيرها للفرق اللغوي الواضح بين الجملتين المذكورتين.

السياق الكريم فضلاً عن أن لفظ "مَغْفِرة" هنا يعطينا معنى آخر وهو نيل المغفرة من الله تعالى على هذا العمل الصَّالح"[٢٤٨].

على هذا تكون الآية قد اشتملت على إيجاز حذف في المفرد[٢٤٩] والتقدير وفعْلٌ مغفرة خير من صدقة يتبعها أذى.

أما قوله "خَيْرٌ" والَّتي جاءت في الآية لتفضيل قول المعروف على الصَّدقة التي يتبعها مَنٌّ أو أذىً فقد جاء في اللِّسان ما يدلُّ على صحَّة استعمال خَيْر بمعنى أفعَل التفضيل:

(فإن أردت معنى التفضيل قلت: فلانة خَيْر النَّاس، ولم تقل: خيرة وفلان خَيْر النَّاس ولم تقل أخيَر، لا يُثنَّى ولا يُجْمع لأنَّه في معنى أفْعَل)[٢٥٠].

نقول: إن مجيء لفظ "خَيْر" هنا بدلاً من أفضل مع أنهما تؤدِّي نفس المعنى - كما بيَّنا - إلا أن "خَيْر" أنسب للسياق من حيث السلاسة والعُذوبة وذلك هو شأن القرآن الكريم دائماً في تخيُّر ألفاظه ضمن سياق الآيات الكريمات فلا نجد إلا ألفاظاً يلائم بعضها مَنْ حيث الغرابة أو التَّداول ورعاية الفاصلة لحسن الجوار والمناسبة[٢٥١].

وبإعادة النَّظر إلى ما بدأت به الآية الكريمة: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ ...﴾ الآية، نلاحظ هذا التقارب بين مخارج الحروف في الألفاظ فضلاً عن سلاسة اللَّفظ وسهولته في العبارة كلها وبدراسة موقع الألفاظ نحويًا نلاحظ أنَّ قوله تعالى: "قَوْلٌ" عبارة عن مبتدأ مرفوع و"مَعْرُوفٌ" صفه لهذا المبتدأ مرفوعة مثله، و"مَغْفِرَةٌ" معطوفة على المبتدأ مرفوع مثله.

وقوله "خَيْرٌ" خبر المبتدأ مرفوع بالضَّمة الظَّاهرة[٢٥٢]، أو أن قوله "قَوْلٌ" مبتدأ خبره محذوف والتَّقدير "أولى".

٢، ٣ ــ دراسة الألفاظ والتراكيب:

وتبدو بلاغة الآية الكريمة من خلال دراسة ما فيها من ألفاظ وتراكيب وهنا يجب أن نعود إلى نصها الكريم، قال تعالى[٢٣٦]:

﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾.

فالملاحظ أن الآية الكريمة دلّت على ردّ السائل رداً طيباً بقوله: "قَوْلٌ مَعْرُوفٌ" ولم تدل عليه مثلاً بالقول رد جميل ولعل في ذلك الاستعمال ظلالاً واضحةً لكلٍّ من لفظة "قَوْلٌ" ولفظة "مَعْرُوفٌ".

فمادة "قَوَلَ" في اللُّغة لها: (أصل واحد صحيح يُقال كلمة، وهو القَولُ من النُّطق، يقال قَالَ يَقُولُ قَوْلاً والمقول: "اللِّسان")[٢٣٨].

وذكر الراغب الاصفهاني أن لفظة "القَوْل" تُستعمل على أوجه أظهرها أن يكون للمركّب من الحروف والذي لا يبرز إلا بالنُّطق سواء كان مفرداً أو جملة كذلك قد تسمى القصيدة والخطبة قَوْلاً[٢٣٩] كما يُقال للشيء المتصوَّر في النَّفس قَوْلاً، قال تعالى[٢٤٠]: ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ ﴾.

وقد يستعمل للاعتقاد مثل: يقول فلان بقول أبي حنيفة، أو للدّلالة على الشيء[٢٤١] مثل: "امتلأ الحوض وقال قَطْنِي".

أما قوله تعالى[٢٤٢]: ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

(أي علم الله تعالى بهم وكلمته عليهم)[٢٤٣].

وأقرب المعاني السّابقة إلى سياق الآية الكريمة هو هذا المعنى الأخير وهو (كلمة معروف).

وهنا تبدو البلاغة في مجيء لفظة "قَوْلٌ" بدلاً من لفظة "رد" مع أن الآية

الأيمان لذا جاء التأكيد في نهاية الآية على ضرورة عدم التكبّر والفخر وأن الله - عز وجل - لا يحب العمل الذي يتبعه أو يصاحبه ذلك لما في التكبر والفخر من إخلاق الأذى بهذه الفئات أو المقصود بهذه الفاصلة هو التعليل للأمر بالإحسان[٢٢٥].

والآية الكريمة في سورة النساء تأمر بالإحسان[٢٢٦] فهي أكثر شمولاً في ذكر الفئات المطلوب الإحسان إليهم لأن الإحسان عام ومطلوب في كل الأحوال ولكلّ من يحيط بالمسلم بل هو درجة عليا من درجات العبادة.

أما آية سورة البقرة[٢٢٧]، في صدقة التطوّع فإنها لا تأمر بالصدقة على الجيران وغيرهم فقد يكون الجار غنياً أو غير محتاج لهذه الصدقة فتقع في غير مكانها أو تصيب فئة غير محتاجة إليها..

كما أخر السياق الكريم ذكر ابن السبيل في آية سورة النساء[٢٢٨]، على الجار ذي القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجَنب لأن كل هؤلاء أولى بالإحسان لدنوّهم من الشخص واحتكاكهم به أكثر من ابن السبيل الذي قد لا يراه إلا مرة أو لحظة قد تتكرر وقد لا يُكتب لها التكرار.

الباب الثاني:

بر الناس في الأقوال:

لا شك أنّ البرّ لا يقتصر على الأفعال فقط بل في الأقوال أيضاً وقد ذكرنا أمثلة ذلك من القرآن الكريم في أوّل البحث[٢٢٩]، ونتناول فيما يلي - من الصفحات مثالين على برّ الناس في الأقوال - بالدراسة والتحليل البلاغي:

١ ـ قال تعالى[٢٣٠]:

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

والسّمعة..»

وهكذا بدا لنا مناسبة الآية[٢١٢] لما قبلها وما بعدها في السياق الكريم ومراعاتها لمقتضى الحال وقوة ارتباطها بالمعاني قبلها وبعدها.

أمّا عن تراكيب الآية الكريمة فكما يبدو من خلال قراءة الآية مرّة أخرى قال تعالى[٢١٣]:

﴿واعْبُدُوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا به شيئًا وبالوالِدَيْنِ إحْسانًا وبِذي القُرْبى واليَتامى والمَساكِينِ والجارِ ذي القُرْبى والجارِ الجُنُبِ والصّاحِبِ بالجَنْبِ وابْنِ السَّبِيلِ وما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كانَ مُخْتالًا فَخُورًا﴾.

إذ تبدو التّراكيب قوية مُترابطة مع ما فيها من إيجاز واضح[٢١٤]، فضلاً عن بلاغتها وقُدرتها على أداء المعنى في سلاسة لفظ وجمال تعبير وصدق- عز وجل- في قوله[٢١٥]: ﴿ولَوْ كانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾.

٤ ــ تعقيب وموازنة:

عند موازنة الآية الكريمة[٢١٦]: ﴿واعْبُدُوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا به شيئًا وبالوالِدَيْنِ إحْسانًا وبِذي القُرْبى﴾.

بقوله تعالى[٢١٧]: ﴿وإذْ أخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إلّا اللَّهَ وبالوالِدَيْنِ إحْسانًا وذِي القُرْبى واليَتامى والمَساكِينِ﴾.

نقول عند عقد الموازنة بين الآيتين:

نلاحظ أن الآية الأولى[٢١٨] خاصة بأمة محمد ﷺ أي أنّ الأمر موجه لها أما الآية الثانية[٢١٩] فالأمر فيها في حقّ بني إسرائيل لذا جاءت الباء في قوله:

ليدل دلالة واضحة على مناسبة هذا المعنى للآية كلها.. ؟ فأول ما يبدو في الجملة هو حرف التوكيد "إنَّ" الذي يؤكِّد المعنى بعده والجملة بعده عبارة عن تذييل لما قبله[٢٠١].

أما أن يُذكر الاختيال والفخر في فاصلة الآية الكريمة فهذا يدل على مناسبة هذه الفاصلة للآية الكريمة قبلها لأن المختيلة هي "إسبال الإزار"[٢٠٢]، "والمُختال: ذو الخُيَلاء، والكِبْر"[٢٠٣].

وتبدو دقَّة اختيار هذه اللَّفظة "مُخْتَالاً" في موقعها من السياق لما يصدر من المختال من كِبْر وأنَفَة تُجاه أقاربه لاسيَّما في حالة فقرهم لذا لا يهتمُّ بأمرهم ولا يحسن إلا القيام بأمر نفسه[٢٠٤]، ولا أدل على ذلك من إتباع لفظة "مُخْتَالاً" بلفظة أخرى تؤكِّد المعنى هي قوله "فَخُورا"، لأن الفَخْر قد يدفع الشَّخص إلى بعض الأعمال الطَّيِّبَة تُجاه الآخرين رغبة منه في الرِّياء والسُّمعة وليس لوجه الله تعالى وحتى لا يقطع التحسن في مثل هذه الأعمال التي تضيع إحسانه فقد كان من بلاغة الأسلوب القرآني أن يكون التوجيه واضحاً.. فالمولى- عز وجل- لا يقبل إلا التَّواضع وحسن التعامل مع الآخرين، كما أنه لا يرضى أن يكون ذلك إلا خالصاً لوجهه الكريم بدا جاء لفظ "فَخُوراً" على صيغة المبالغة "فَعُولاً" التي تعطي المعنى عمقاً والأسلوب سلاسة وجمالاً ويؤيِّد ذلك مناسبة الصِّفة "فَخُوراً" لجرس الفواصل قبلها وبعدها[٢٠٥]، وهكذا جاءت الفاصلة في الآية الكريمة لتضفي على نور الآية السابقة نوراً آخر يزداد به المعنى وضوحاً وبياناً ولمكناً في العقول والقلوب[٢٠٦].

وهنا نعود إلى بيان ارتباط الآية الكريمة[٢٠٧] كلها بما جاء قبلها وبعدها في سياق السورة الكريمة لنبيِّن مدى تلاحُم المعاني القرآنية وقُدرة الألفاظ البيانية على إبراز هذه المعاني في بلاغة وحسن أداء.

ولأنها أولى بالإحسان والبرّ من اليتامى والمساكين- مع عدم الإسراف في هذا الإحسان- جاء في الحديث الشريف[١٩١]:

عن أبي هريرة رضي الله قال قال رسول الله ﷺ: «ديناراً أنفقته في سبيل الله وديناراً أنفقته في رقبة وديناراً تصدّقت به على مسكين وديناراً أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»، كما قال ﷺ في حديث آخر[١٩٢]: «وابدأ بمن تعُول».

أما قوله: ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ فقد ذكرنا سبب تأخُّرها في السياق عن الصاحب بالجنب، بينما نذكر هنا أهمّية تقدمها على قوله: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ وهم: الرّقيق لأن ابن السبيل مسافر قد انقطع عن بلده بسبب هذا السفر وقد يتعرّض في سفره هذا إلى الفاقة والفقر رغم غناه في بلده وقد يظنّ المرء أن أمثال هذه الفئات ليس من الضروري مد يد العون إليهم، وقد يعتقد أيضاً أن رقيقه أولى بهذا الإحسان من هذا المسافر.. ولدفع هذه الاحتمالات فقد ذكر السياق الكريم ابن السبيل مقدّماً على الرقيق وهو: ﴿ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ فقد يُفضل المرء الإحسان إلى رقيقه أو خادمه على ابن السبيل لكسب ودّه لحاجته الماسة إليه فيدخل في هذا حبُّ الذّات بطريق غير مباشر، لذا فقد كان من البلاغة هنا تقديم "ابن السبيل" على "مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ".

أما قوله: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ؛ فهو تعبير دقيق يَهَب السياق الكريم مزيداً من البلاغة وحسن التّركيب، فأول ما يصادفنا في هذا القول "مَا" وهي تُستعمل لغير العاقل عادة، وهي هنا للعاقل باعتبار النّوع[١٩٣] وقيل استعملت لأنّها أعم من "من" ؛ فتشمل جنس الحيوان عموماً، أي الإنسان والحيوان، وبما أنّ الحيوان في يد الإنسان أكثر من الرقيق فغلب جانب الكثرة.

أما إذا أمعنا النظر في جملة "مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" ومعناها في اللّغة،

من هو أكثر النَّاس عطفاً عليهم ورفقاً بهم وهو والدهم[١٨١].

(أما المساكين فيأتي دورهم في السياق متأخراً عن اليتامى لقُدرتهم على عرض حالهم للغير - لكبر السِّن - فيجلبون بذلك نفعاً لأنفسهم أو يدفعون عنها الضَّرر لذا يكون الإحسان إليهم إما بالعطاء المادي أو المعنوي وذلك بالرَّد الجميل وعدم نهرهم)[١٨٢].

قال تعالى[١٨٣]: ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾.

ويأتي بعد المساكين قوله: ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾، وهو الجار الذي له حقَّان: الجوار والقرابة، نقول يأتي دوره في السياق بعد المساكين لأهمِّية الإحسان إلى المساكين قبل الجار القريب فقد يكون المسكين أكثر احتياجاً إلى المساعدة والإحسان من الجار القريب وحتى لا تدخل عاطفة الاهتمام بالقرابة هنا فتفضل الجار القريب على المسكين المحتاج[١٨٤]، أما إذا كان ثمة تفضيل بين الجيران فيأتي هذا التفضيل في قوله- عز وجل- في نفس الآية بعد ذلك[١٨٥]: ﴿ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ﴾.

فعطف السياق الكريم بعد ذلك "الجار الجُنُب" وهو الذي له حق الجوار فقط وأصل "الجُنُب" من الجَنَابَة ضدُّ القرابة وهي البُعد ووزن الكلمة "جُنُب" هو فُعُل ويمكن أن تكونَ "الجَنْب" بفتح الجيم وسكون النون على وزن "فَعْل" وهنا يحتمل المعنيين:

أحدهما: أنه يريد بالجنب النَّاحية، ويكون التقدير والجار ذي الجنب فحذف المضاف، لأن المعنى مفهوم، والآخر: أن يكون وصفاً على سبيل المبالغة كما يُقال فلان كَرَم، وجُود[١٨٦].

ونقول: إذا أُريد بالجنب النَّاحية أي على تقدير مضاف محذوف لفُهم

الإشراك به لما فيه من صلاح الدِّين الذي يكون بدوره سبباً في صلاح الفرد بصفة خاصة ثم صلاح المجتمع الإسلامي بصفة عامة.. فصلاح المجتمعات أصله صلاح أفرادها وأُسرها.. ويتم هذا الصَّلاح بعطف الآباء على الأبناء وذلك شيء فطري لايحتاج إلى توصية أو أمر، ثم بإحسان الأبناء إلى الوالدين وهذا هو الموصى به في الآية الكريمة وذلك لأن الأبناء بفطرتهم لا يتجهون إلاَّ إلى آبائهم متجاهلين متناسين من كانوا سبباً في وجودهم[١٦٥] ومن تحملوا ما تحمَّلوه من السَّهر والمشقَّة في ولادتهم وإسعادهم لذا نجد فضل اختيار لفظ الوالدين على الأبوين[١٦٦] كذا بلاغة لفظ "إحساناً" في السياق الكريم تبدو هذه البلاغة في معنى اللفظ وتناسبه من حيث المبنى مع هذا السياق.

أما المعنى فيبدو من خلال ما جاء في قول ابن فارس عن هذه المادة: (الحاء والسين والنون أصل واحد، فالحُسْن ضد القُبح)[١٦٧].

وعلى هذا تكون المحاسن من الإنسان ضدُّ المساوي[١٦٨]، وقد جاء عن الراغب الأصفهاني أن: «الحسن عبارة عن كلِّ منهج مرغوب فيه وذلك على ثلاثة أضرب: مستحسن من جهة الفعل، ومستحسن من جهة الهوى ومستحسن من جهة الحس»[١٦٩].

وعلى هذا فيكون الأمر في الآية الكريمة بأداء هذه الأضرب جميعها للوالدين على أكمل وجه وأفضله ويؤيد ذلك عطف هذا الأمر على أمره- عز وجل- بعبادته وحده دون سواه وكأنَّ الآية الكريمة تشير إلى أنَّ أهمِّية هذا الإحسان وضرورته مساو لأهمية عبادة الله- عز وجل- وحده لا شريك له إذ إن واو العطف في قوله: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أفادت ذلك[١٧٠].

ويتجلى فضل لفظ "إحساناً" في السياق أيضاً إذا قورن بلفظ آخر قد يبدو

والأصل الأول هو المراد هنا، فالعبد هو المملوك والجماعة منه العبيد.

قال الخليل: «إلا أن العامَّة اجتمعوا على تفرقة ما بين عباد الله والعبيد المملوكين يُقال:

هذا عبدٌ بين العبودة، ولم تسمعهم يشتقُّون منه فعلاً، ولو اشتق لقيل عبد، أي صار عبداً وأقرَّ بالعبودية ولكنَّه أميت الفعل ولم يُستعمل.

وأما عبد يعبُد عبادةً فلا يُقال -إلا لمن يعبد الله تعالى- يُقال منه عبد يعبُد عبادةً وتعبَّد يتعبَّد تعبُّداً»[١٥٢].

أما المتعبِّد فهو المتفرِّد بالعبادة، ولا يُقال يَعبُد مولاه[١٥٣].

والعبادة أبلغ من العُبودِيَّة لأن العبادة تعني غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى، ولذا جاء في القرآن الكريم[١٥٤]: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الآية.

والعبادة نوعان:

(أ) عبادة بالتسخير ويشترك فيها الإنسان وسائر المخلوقات قال تعالى[١٥٥]: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

(ب) عبادة بالاختيار وهي لذوي النُّطق[١٥٦]، قال تعالى[١٥٧]: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية، وقوله[١٥٨]: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية.

«وبما أن العبادة تعني غاية التذلل والخضوع من العبد لخالقه، لذا نجد في الآية الكريمة التي نحن بصدد دراستها، عطف قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ على قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾، لأن كمال الخضوع والتذلُّل للخالق -سبحانه- يقتضي عدم الإشراك به إذ إن الشّركة تعني "خلط الملكين" وقيل هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعداً عيناً كان ذلك الشيء أو معنى، كمشاركة الإنسان

والإحسان إلى الوالدين يعني برّهما والعمل على كَسب رضاهما وإن كلّف ذلك الأمر بذل النَّفس والمال- ما لم يكن ذلك في معصية الله- . . لأنهما أولى النَّاس بالعناية والرِّعاية من غيرهما، لاسيَّما مع كِبَر السِّن وعدم قُدرتهما على القيام بأمورهما وشؤونهما الخاصة وغيرها قال تعالى[139]: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾.

ويتبع الإحسان إلى الوالدين وبرُّهما الإحسان إلى كل من له صلة بهما كالأعمام والعمّات والأخوال والخالات ومن يتبعهم لما في ذلك من صلة الرَّحم أيضاً[140].

كذا يكون برّ اليتامى وهم على نحو ما بيناً في تفسير المثال السابق هم الذين فقدوا آباءهم دون سن الرُّشد لضعفهم وقلَّة حيلتهم.

أما المساكين فهم أيضاً ممَّن وجب الإحسان إليهم وهم الَّذين ذاقوا ذُلَّ الفاقة والحاجة[141].

ويدخل ضمن الأمر بالإحسان البرُّ بالجار الذي له صلة قرابة ورَحم وذلك لما له من حقّ القَرابة والجوار والإسلام[142]، ولا يقتصر الأمر على من له صلة رَحم وقرابة من الجيران بل يمتدُّ الأمر إلى الجار الذي ليس له صلة قرابة أو نسب بل قد يكون من قوم آخرين[143]، أو هو اليهودي أو النَّصراني[144].

وكذلك الرَّفيق أو الصَّاحب في السفر وقيل الرَّفيق الصَّالح أو هي الزَّوجة أو المنقطع إلى الرَّجل الذي يلازمه رجاء نفعه . . وذلك لأنَّ كل أولئك يدخلون ضمن حق الصاحب على المصحوب[145].

أما ابن السَّبيل وهو الضَّيف الذي يمرُّ في سفر الطَّاعة على غيره فهو يدخل ضمن هؤلاء الَّذين يجب لهم الإحسان لما قد يصادفه من قطيعة الطريق ومشقَّته.

قوله: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾.

فإن المبالغة في العلم بالخير فقط هي المطلوبة هنا وليست الحكمة، إذ الحكمة الإلهيَّة تستدعي الأمر الإلهي الذي يستدعي- بدوره- التَّنفيذ مهما تكن الظروف بينما صدقة التطوُّع ليس فيها هذا الأمر ولذلك لا تستدعي التنفيذ الواجب بل حسب اختيار الشَّخص ورغبته الخاصَّة.

فإما أن يُخرجها- وهو خير له- وإما أن يحرم نفسه من ذلك الخير بامتناعه عنها.

ثم نلتقي بين سطور هذه المقارنة مع آية أخرى وهي قوله تعالى[١٣١]:

﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾.

فالآية الكريمة كما نلاحظ تتحدث عن المال الذي يُنفق رياءً ولا يبتغى به وجه الله- عز وجل- وهو مصرف سيء- والعياذ بالله- ودافعهُ الشَّيطان وعاملهُ الهوى حتى وإن كان هذا المال مقدَّماً للفقراء أو غيرهم ممن ذكرتهم الآيتان السابقتان[١٣٢] فهو لا يحتسب من أفعال البرِّ بل من فعل الشيطان لذا ناسب أن تكون فاصلة الآية الكريمة لافتة لسوء العاقبة من هذا العمل الذي يتنافى مع الإيمان بالله واليوم الآخر فجاء قوله تعالى في خاتمة الآية نفسها[١٣٣]: ﴿ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾.

نعم ذلك هو القرآن الكريم الذي يختار اللفظ المناسب في المكان المناسب وكأنَّ ألفاظ السياق فيه حبَّات عقد ينتظمن في أماكنهن في دقة وحسن صنعة تُسهم في خَلْق جمال ذلك العقد ونظمه البديع ولكتاب الله العزيز المثل الأعلى.

أدلّ على ذلك من موقف أبي بكر الصّديق- رضي الله عنه- خليفة رسول الله ﷺ وهو من أحلم الناس، لا أدلّ على ذلك من شدّته في حروب الرّدة مع الممتنعين عن أداء الزكاة وقد ناشده المسلمون ألاّ يعرض نفسه للخطر ولكنه أصر على موقفه وخروجه إليهم بنفسه عندما هاجموا المدينة وأسامة في الشام بجيش المسلمين[١٣٢] حتى قال قوله المشهورة:

«والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حقّ المال والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها»[١٣٣].

كذلك نلاحظ تلك الحكمة الإلهيّة في ترتيب الأصناف في آية صدقة التّطوّع[١٣٤]، الذي جاء بالوالدين والأقربين ثم غيرهم وهو من باب الأولى فالأحوج فالأحوج لذا كان العطف بين الأصناف جميعاً بالواو.

أما في آية الزكاة فقد جاء الترتيب فيها خلاف ذلك إذ نجد السياق الكريم ذكر أولاً الفقراء والمساكين والعاملين عليهم والمؤلّفة قلوبهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾[١٣٥]، فعطف الأصناف الأربعة الأولى المتّصلة باللام ليبان أن الزكاة لهم وليس لغيرهم وقيل يمكن أن تُصرَف للأصناف الثّمانية أو إلى بعضهم فإلى أيّ صنف منها دُفعت أجزأت[١٣٦].

ثم جاء السياق بقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، فعدل هنا عن اللام في الأصناف الأربعة الأخيرة- إلى "في" لبيان أنهم أرسخ في استحقاق التّصدّق عليهم ممّن سبق ذكرهم لأن «في» للوعاء تنبّه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصّدقات ويجعلوا مظنّة لها ومصبّاً..)[١٣٧].

وهو الجهاد بالنفس والقتال في سبيل الله والذي يشمل الأمرين معاً بذل المال والنفس معاً [١١٤]، وبهذا الاتصال القوي بين الآية الكريمة: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾، وبين ماسبق بها من آيات يبدو لنا مطابقتها لمقتضى الحال وتوالؤمها مع السياق [١١٥].

ذلك هو شأن النظم الغني في القرآن الكريم يقول الشيخ عبد القاهر في حديثه عن الترابط الوثيق بين المعاني والجمل:

«واعلم أنّ مما هو كالمعلوم أصل في أن يدق النظر ويغمض المسلك في توخّي المعاني التي عرفت، أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتدّ ارتباط ثان منها بأول، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً، وأن يكون حالك فيها حال الباني، يضع بيمينه هاهنا، في حال ما يضع ببساره هناك، نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين، وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره وقانون يحيط به فإنه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة» [١١٦].

٤ ــ تعقيب وموازنة:

سبقت الإشارة [١١٧]، إلى أن هذه الآية الكريمة [١١٨]، في صدقة التطوّع وهي قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

وعلينا هنا أن ننظر إلى الآية الأخرى التي بيّنت مصارف الزكاة المفروضة وهي قوله تعالى [١١٩]:

وهكذا تدلّ هذه الرواية على تمكن فاصلة القرآن في مكانها حتى لتكاد توحي بها الآيات قبل نطقها ولا أدلّ على هذا التمكّن في الآية الكريمة: ﴿وما تفعلوا من خير فإنّ الله به عليمٌ﴾[١٠٤].

نقول لا أدلّ على ذلك من تأمّل معنى لفظ خبير مثلاً والذي قد يبدو للسّامع غير المتأمّل، أنها يمكن أن تحلّ محل لفظة "عليم" في سياق الآية المذكورة[١٠٥].

فـ(الخبر: العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر، وخَبَرتُه خُبْراً وخُبْرة وأخبرتُ أعلمتُ بما حصل لي من الخَبَر، وقيل الخُبْرَة المعرفة ببواطن الأمور)[١٠٦].

أما العلمُ فهو إدراك الشّيء بحقيقته[١٠٧]، وهذا يعني أن الخَبَر لا يكون إلا بعلم مسبق عن أمر مّا؛ فهو إذاً مرحلة تالية للعلم، والعلم أصل لهذا الخبر، لذا تكون لفظة "عليم" في سياق الآية الكريمة أكثر بلاغة وأمكن فاصلة من خبير- والله أعلم-.

وذلك هو شأن القرآن الكريم في ألفاظه ونظمها، إنه يختار اللفظ في السياق- وكذلك الرّسام- يختار اللّون ضمن بقية الألوان في اللّوحة المرسومة- أو نقش الثّوب- ولأسلوب القرآن القدسيّة والعَظَمة، يقول عبدالقاهر الجرجاني في ذلك:

«وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصُّور والنقوش فكما أنّك ترى الرجل قد تهدّى في الأصباغ التي عمل منها الصُّورة والنَّقش في ثوبه الذي نَسج، إلى ضرب من التَّخيّر والتدبّر في أنفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها إلى عالم يتهدّ إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في

الشَّرط في قوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾، والجملة في محل جزم جواب الشَّرط الثَّاني (ما تفعلوا)[٩١] ومن الجانب البلاغي، جملة (ما تفعلوا من خير) وما بعدها هي تذييل[٩٢] على الجملة السَّابقة في الآية الكريمة وهي قوله تعالى[٩٣]: ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾، فالملاحظ اتصال الفاء الواقعة في جملة جواب الشَّرط بإن المؤكدة لما بعدها بمعنى أن علم الله واقع لا محالة ثم ذكر المسند إليه[٩٤] لفظ الجلالة "الله" في قوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾.

لأنَّ في ذكره ضرورة ماسَّة ولا مقتضى لحذفه أو العُدول عنه إذ إنَّهُ لو اكتفى بالضمير المتصل كأن يقال مثلاً فإنه بكل شيء عليم لما عُلم صاحب هذا الضمير لاسيَّما وأنَّ السياق قبله ليس فيه ذكر للفظ الجلالة العظيم[٩٥] فضلاً عن أنَّ في هذا الذِّكر تعظيماً وإجلالاً للذَّات العليَّة مع تقوية الحكم وتوكيده.

ويأتي الجار والمجرور به" المقترن بالضَّمير العائد على فعل الخير محصوراً بين لفظ الجلالة "الله" وبين صفته العلم المبالغ فيها "عليم"[٩٦]، ولم يأت السياق بالقول فإن الله عليم به مثلاً وذلك ليدلَّ هذا الترتيب على أهمِّية المتقدَّم[٩٧]. وسيطرة علم الله عزَّ وجل على هذا العمل رغم ظهوره أحياناً واختفائه أخرى وليكون هذا حافزاً إلى فعل الخير والتفاني في العطاء المثمر ونظيره من القرآن قوله تعالى[٩٨]: ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

والعلم- هنا- بمعنى (إدراك الشَّيء بحقيقته)[٩٩]، والمبالغة في ذلك.

فإذا علمنا هذا المعنى عن أصل المادَّة في صيغة المبالغة «عليم» وتأمَّلنا

خطورة ذلك بقوله تعالى[٨٠]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

ونذكر هنا ما جاء في الآية الكريمة التي نحن بصدد دراستها، نذكر ما جاء في قوله: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، وما وضّحناه في كلمة (خَيْر) من قبل[٨١] وأن المقصود بها العموم والشمولية فأي خير يبذل وينفق فهو مطلوب بذله للمذكورين في الآية الكريمة ومن بينهم اليتامى سواء كانوا أغنياء أو فقراء فالأغنياء منهم كما ذكرنا قد يكونون تحت أوصياء ظلمة أكلة لحقوقهم ودور المنفق هنا هو الأخذ بيدهم ونصرتهم بالمال والجاه حتى يبلغوا أشدّهم ويتمكّنوا من أموالهم.

أما الفقراء فهم لا يحتاجون إلى التّعريف بهم فلسان حالهم ناطق بما هم فيه.

لذا قدم السّياق الكريم اليتامى على غيرهم وجاء ترتيبهم في الآية بعد الأقربين مباشرة لأهمّية الإنفاق عليهم وعدم إغفال ضعفهم ثم جاء قوله تعالى: ﴿وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، فقدّم المساكين على ابن السّبيل لأن فقر المسكين مستمرٌ أمّا فقر ابن السبيل فقد يكون مؤقّتاً فترة غيابه عن وطنه[٨٢].

والمسكين: (هو الذي لا شيء له وهو أبلغ من الفقير)[٨٣]، وقد يكون لديه القدرة والاستعداد والمحاولة الجادّة للكسب[٨٤] وهكذا نلاحظ أن التّرتيب بين هؤلاء المنفق عليهم- بدأ بالأقرب ثم بالأحوج فالأحوج[٨٥] ثم يأتي قوله تعالى[٨٦]: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، فالملاحظ أن الجملة المعطوفة هنا بالواو تبدأ بفعل الشّرط "تفعلوا" بينما بدأت في الشّرط السابق في قوله: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ بفعل الشّرط "أنفقتم".

ويأتي حقّ الوالدين في المرتبة التالية لحق الله- عز وجل- لكونهما هما اللّذان (أخرجاه إلى عالم الوجود في عالم الأسباب الظاهرة)[٧١]، وهما اللّذان حضنا طفولته ولاحظا مراهقته إلى أن بلغ رشده وهما أكبر مرحلتين يحتاج فيهما الإنسان إلى الرعاية والعطاء والتوجيه حيث ينتقل من مرحلتي الضّعف وعدم الإدراك إلى مرحلة القوّة والإدراك التي يصبح فيها الفرد بعد ذلك قادراً على تعلّم المهارات التي لم يمكّنه منها اختلال نموّه السابق[٧٢].

وكان التعبير بلفظ الوالدين أكثر مناسبة للسياق من لفظ الأبوين مثلاً لأنّه دل على لحظة الولادة الحرجة التي تمرُّ بها الأمُّ وما تعانيه من آلام الوضع وغيره ومشاركة الزّوج لها في تلك اللّحظة بمشاعره وإحساسه ودعائه.

ثم يأتي بعد ذلك دور الأقربين وهو لفظ مأخوذ من مادة "قَرُبَ" التي ذكرها ابن فارس بقوله:

«القاف والراء والباء أصل صحيح يدل على خلاف البُعد. يقال قَرُب يَقْرُب قُرْباً، وفلان ذو قرابتي وهو مَن يَقْرُب منك رحماً»[٧٣].

وبالنّظر إلى هذا المعنى اللغوي الدقيق نُدرك- بدورنا- بلاغة ودقّة اختيار القرآن الكريم لهذا اللفظ في موضعه إذ إن العلة في تقديم الأقربين على اليتامى والمسكنة وهي قربهم من الشّخص الميسور وعلمهم بحاله أكثر من غيرهم بسبب مخالطتهم له في معظم الأوقات، ومخالطته لهم أيضاً وعلمهُ بحالهم وحاجتهم الماسّة للمساعدة لذا كان من الواجب عليه مراعاة حالهم قبل غيرهم وذلك من باب الأولى فالأولى فهم جزء لا يتجزّأ منه وحيث إنّ الأمر كذلك؛ فقد أصبح الإنفاق عليهم نازلاً بمنزلة الإنفاق على النّفس وإنفاق المرء على

بأخرى من أجل المكسب أو غيره.

وقد أكدت هذه الدقة في الاستعمال الإجابة بقولة تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ .. ﴾.

إذ بيَّن فيها السياق الكريم مواضع هذا الإنفاق والمستحقِّين له وهم: المذكورون في الآية الكريمة[٤٧]: ﴿ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾.

وقبل أن نبيِّن من المقصود بهؤلاء؟ علينا أن نستوقف القلم عند تأمّل قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾.

فالجملة تبدأ بفعل الأمر "قُلْ" الذي يدل على طلب حدوث الشيء بعد زمن التكلم مباشرة وهو يدل أيضاً على أنَّ الرسول- صلَّى الله عليه وسلَّم- لا ينطق عن الهوى وأن ما يأمر به المسلمين من صدقة أو غيرها إنَّما هو وحي يوحى يعلِّمه شديد القوى- جبريل عليه السلام- من عند الله- عزَّ وجل-.

وقوله (مَا أَنفَقْتُم) جملة الشَّرط مكوَّنة من اسم الشَّرط الجازم "مَا" مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدَّم[٤٧] للفعل "أَنفَقْتُم" و"أَنفَقْتُم" فعل الشرط والتاء فاعل والميم للجماعة[٤٨].

أما قوله (مِنْ خَيْرٍ) فهي جار ومجرور متعلِّق بمحذوف حال من "مَا" الشَّرطية أو هو تمييز لها[٤٩].

ونلاحظ هنا قوله (مِنْ خَيْرٍ) وما أضفته "مِنْ" التَّبعيضيَّة على السياق من جمال وبلاغة في الأسلوب، فهي إضافة إلى ما بيَّنته من بيان المنفَق قد أعطت معنى القليل والكثير[٥٠] لاسيَّما إذا لاحظنا مجيء لفظ "خَيْر" نكرة بعدها ففي هذا التَّنكير أيضاً التعميم والشمولية[٥١] إذ إن هذا الخير لم يتحدَّد بمال أو كسوة أو حُلِيّ أو أثاث.. إلخ، وإن كانت بعض كتب التفسير ذكرت أن المقصود

محل نصب مفعول به مقدّم للفعل "يُنفقُونَ" وجملة "يُنفقُونَ" في محل نصب مفعول ثان للفعل "يَسْأَلُونَكَ" والمعلّق بالاستفهام "مَاذَا"[11].

وإمّا أن تعتبر مُركّبة من: (مَا، ذَا) وحينئذ تكون:

"مَا" اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ و"ذَا" اسم موصول بمعنى "الّذي" مبني على السكون في محل رفع خبر المبتدأ "مَا" وجملة "يُنْفِقُونَ" من الفعل والفاعل صلة الموصول لا محل لها من الإعراب[12].

وعند الوقوف على جملة "يُنفِقُونَ" ودراسة موقعها من السّياق الكريم، ندرك مدى دقتها في هذا السياق وفضلها على جملة أخرى قد يظنّ السامع صحّة استعمالها مثل - يَصْرُفُون -.

تبدو هذه الدّقّة من خلال دراسة المعنى اللّغوي لكل من مادة "نَفَقَ"، ومادة "صَرَفَ" وهما أصلان للجملتين "يُنفِقُونَ" "يَصْرِفُونَ" على التّوالي أما مادة "نَفَقَ" فقد ذكر ابن فارس أن: «النون والفاء والقاف أصلان صحيحان، يدل أحدهما على انقطاع شيء وذهابه، والآخر على إخفاء شيء وإغماضه، ومتى حُصّل الكلام فيهما تقاربا»[13].

والأصل الأوّل هو المراد هنا يُقال: نَفَقَ الشّيء إذا فَنِي، ونَفَقَت النّاقةُ نُفوقاً إذا ماتت. وسُمّيت النّفقةُ كذلك لأنها تمضي لوجهها: ويقال أنْفَقَ الرجل إذا افتقر[14].

وذكر الراغب أن الشّيء يُنفَقُ (إما بالبيع مثل نَفَقَ الشّيء نَفَاقاً وإمّا بالموت مثل نَفَقَت الدّابة نفوقاً، وإما بالفَناء نحو نَفِقَت الدّراهم تُنفَقُ وانفقتُها، وقد يكون الإنفاق في المال وفي غيره وقد يكون أيضاً واجباً أو تطوّعاً)[15]. قال تعالى[16]: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي ... ﴾ الآية.

٢ , ٣ ــ دراسة الألفاظ والتراكيب:

وعند التحليل البلاغي للآية الكريمة علينا ألا نغفل الجانب اللفظي وما أضفاه على السياق الكريم من صياغة فذّة ومعنى جليل متميز لايمكن أن نجده في أسلوب آخر قد يؤدّي نفس المعنى المقصود.

ولنعد هنا إلى نصّ الآية الكريمة لنظر لنرى مصداق ذلك:

قال تعالى[٣٦]:

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾.

نلاحظ بدء الآية الكريمة بالجملة (يَسْأَلُونَكَ)، والمعلوم أن (السُّؤال استدعاء معرفة أو ما يؤدّي إلى المعرفة، واستدعاء مال أو ما يؤدّي إلى المال..)[٣٧].

والسؤال هنا إنّما المراد به استدعاء معرفة لذا كان جوابه على اللّسان فتأتي جملة (قُلْ) لتكون فاتحة هذه الإجابة المقنعة بالمعرفة والتّوضيح للحكم.

أما قوله تعالى: ﴿ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾، فالملاحظ أن صيغة الاستفهام (مَاذَا) يُراد بها السؤال عن الشّيء المطلوب نفسه وليس مواضع الصّرف وأصحابه[٣٨].

ويحتمل أن يكون (مَاذَا) سؤال عن المصرف على حذف مضاف، والتقدير مصرف (ماذا يُنفقون)؟ أي يجعلون إنفاقهم فيكون الجواب إذ ذاك مطابقاً ويحتمل أن يكون حذف من الأول الذي هو السؤال عن المصرف، ومن الثاني الذي هو الجواب ذكر المنفق وكلاهما مراد وإن كان محذوفاً[٣٩].

وعلى هذا الاعتبار تكون الآية قد اشتملت على إيجاز حذف في

رَحِمَهُ... إلخ.

(ب) بِرُّهم في الأقوال كأن يُقول مثلاً: بَرٌّ فلان في قوله أو برٌّ في يَمينِه أي صَدَقَ.

ومن أمثلة برِّ النَّاس في الأفعال من القرآن الكريم قوله تعالى[٢٧]: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى[٢٨]: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

أما برُّهم في الأقوال من القرآن الكريم ففي مثل قوله تعالى[٢٩]: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى[٣٠]: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وفي الصَّفحات القادمة من البحث سنسلِّط الدِّراسة والتطبيق على بعض آي القرآن الَّتي أشارت إلى بر النَّاس بشقيه السَّابقين في الأفعال وفي الأقوال.

نسأل الله تعالى العون والرشاد وبه التَّوفيق والسَّداد.

الباب الأول: بر الناس في الأفعال:

آ- قال تعالى[٣٠]:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ

كما يُقال أبحرَ إذا ركب البَحْرَ][٩].

وفي الطَّاعة يقال: برَّ الرجل ربَّه ووالده، إذا أطاعهما[١٠].

لا هُمَّ لولا أن بكراً دُونَكُمـا ... يَبـرُّكَ النَّاسُ ويَفْجُـرونَكا[١١]

البِرُّ في الاصطلاح الشَّرعي:

لو عدنا إلى المعاني اللُّغوية السابقة لتأكَّدنا أنَّها أُخذت أصلاً من استعمالات القرآن الكريم لمادَّة (برَّ) ذلك المصدر الأم للُّغة العربيَّة على اتساع معاني ألفاظها واختلاف استعمالاتها حسب السياق الذي وضعت فيه.

فمثلاً لفظ (البَرُّ) وهو خلاف البَحْر في قوله تعالى[١٢]: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الآية، تُصوِّر منها الاتِّساع في فعل الخير فجاء في القرآن الكريم[١٣]: ﴿... إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، فهو من جهة الله بمعنى الثَّواب ومن جهة العبد بمعنى الطَّاعة، كما أسلفنا وهو بهذا المعنى ضربان:

ضرب في الاعتقاد وضرب في الأعمال وقد اشتمل عليه[١٤]، قوله تعالى[١٥]: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

فالآية كما نلاحظ متضمِّنة للاعتقاد والأعمال التي تشمل الفرائض والنَّوافل[١٦].

(ب) برٌ من جهة الخلق ويشمل: برّ الملائكة وبرّ النّاس، هذا وقد ركّز البحث وسُلّطت الدّراسة على الآيات المتحدّثة عن برّ النّاس في الأفعال والأقوال على حد سواء.

فجاء الباب الأول موجّهاً الدّراسة إلى بعض آيات برّ النّاس في الأفعال وهما الآيتان رقم: (٢١٥) من سورة البقرة، ورقم (٣٦) من سورة النساء، لتكونا مثالين لهذا النّوع من البرّ.

أما الباب الثاني، فكان لدراسة وتحليل مثالين آخرين عن آيات برّ النّاس في الأقوال وهما الآيتان رقم: (٢٦٣) من سورة البقرة، ورقم (٩٦) من سورة المؤمنون.

أما عن خطوات الدّراسة لكل آية من الآيات السابقة فقد سارت على النّحو الآتي:

(أ) دراسة المعنى العام للآية مع ذكر سبب النزول إن وجد.

(ب) دراسة ألفاظ الآية، لُغوياً، نحوياً، صرفياً، بلاغياً، لبيان جمال اللّفظ وفصاحته في موضعه مع دقّة السّياق في اختياره.

(جـ) دراسة تراكيب الآية وجملها حسب معطيات علوم البلاغة الثلاثة: «علم المعاني، علم البيان، علم البديع»

(د) تعقيب ومقارنة ويشمل إلقاء بعض النّظرات الفاحصة على الآية الكريمة- موضوع الدراسة- مقارنة بغيرها من الآيات المشابهات لها في المعنى أو الهدف أو بعض السياق ليبان أن كل آية جاءت بليغة في غرضها فصيحة في لفظها متمكّنه في سياق سورتها لاتفصُل إحداها على الأخرى أو تختلف إلا بالإطناب أحياناً أو الإيجاز وذلك حسب مقتضى الحال.

(هـ) الخاتمة: وتشمل أهم ما توصّلت إليه الدّراسة من نتائج.